

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب التاسع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى
الحزب التاسع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٢

سورة الإسراء

هذه السورة مكية بتمامها عند الجمهور ، واستثنى بعضهم أربع آيات فإنها مدنية وهي قوله تعالى : « وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ». وقوله : « وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ » ، وقوله : « وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ». وقوله : « وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » وقيل غير ذلك ، وسيأتي تحقيقها في مواضعها ، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها وسورة الزمر كل ليلة ، كما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها ، وكما تسمى سورة الإسراء تسمي سورة بني إسرائيل ، لكثرة ما ذكر فيها من الحديث عنهم .

صلتها بما قبلها

قال الجلال السيوطي : لما قال الله سبحانه في آخر النحل : « إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » ذكر في هذه شريعة أهل السبت التي شرعها لهم سبحانه في التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل ، وذكر تعالى فيها عصيانهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم ، واستفزازهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، وسؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختمها جل شأنه بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون وأخبر سبحانه أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فَأُهْلِك . . . الخ .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقاصد كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ - إسراء الله بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليطلعه على بعض آياته العظيمة .

٢ - وإيتاء بني إسرائيل التوراة ليعبدوا الله وحده ويهتدوا بهداه ، ولكنهم ضلوا وأفسدوا في الأرض مرتين إفسادا شنيعاً ، فبعث الله من عباده الأقوياء أهل الشدة والغلبة

من عاقبوهم أشد العقاب ، فقد جاسوا خلال ديارهم وقتلوا كثيراً من رجالهم وأسروا نساءهم وذراريهم ، وحطموا هيكلهم ، وقد أنذرهم الله إن عادوا إلى الإفساد فى الأرض أن يعود إلى عقابهم .

٣ـ وبيان أن القرآن يهدى إلى الشريعة الأقوم ويبشر المؤمنين الصالحين وينذر الكافرين الطالحين .

٤ـ وأنه تعالى جعل الليل والنهار آيتين ، وجعل من أثرهما أن نبتغى من فضله ، ونعلم عدد السنين والحساب وألزم كل مكلف بعمله ، وسجله فى كتاب ليقرأه ، يوم القيامة ويعرف منه مصيره .

٥ـ وأنه تعالى لا يهلك قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسوله ويدعو مترفيها إلى الحق ويأمرهم بترك الفساد ، ويستمروا على ماهم فيه فيحق عليهم قضاؤه ، ـ فيدمرها عليهم وعلى أتباعهم .

٦ـ وأن من أراد العاجلة أعطاه الله ما قدره له منها ، وليس له فى جنة الآخرة من نصيب ، بل يعاقب على كفره بالنار يصلاها مذموما مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وعمل لها وهو مؤمن ، شكر الله سعيه ومتعه بالجنة دار السلام .

٧ـ ووصيته تعالى لعباده أن لايشركوا به شيئاً ، وأن يحسنوا إلى والديهم وبخاصة فى حالة الشيخوخة ، ونهيه الآباء عن قتل الأولاد خشية الفقر فإنه يرزقهم وإياهم ، ونهيه الناس عن الزنى وقتل النفس بغير حق ، وإعطاء ولى القتيل سلطان المطالبة بقتل غريمه ، فلا يتعداه إلى سواه ، ونهيه الأولياء والأوصياء أن يقربوا مال اليتيم بغير حق ، وأمره الناس بالوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان المستقيم ، ونهيه عن أن يقول الإنسان مالايعلم وأن يمشى فى الأرض مرحاً وكبرا ، فإنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا ، فلا وجه لكبريائه على الناس مهما أوتى من النعم ، فإنها إلى زوال .

٨ـ كما أنكرت على من يزعم أن الملائكة بنات الله ، ووصفت هذا الزعم بأنه عظيم الخطورة على قائله .

٩ ــ وبينت أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لطلبوا سبيلا إلى صاحب العرش لينازعوه فى ملكه كما يفعل الشركاء ، وبذلك تفسد السموات والأرض ، ولكنها لم تفسد فانتفى بذلك وجود شركاء له تعالى ، وثبت أنه هو الذى تسبح له السموات والأرض دون سواه .

١٠ ــ كما بينت أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن على من يجحدون الآخرة لم يفقهوه ، وولوا على أدبارهم نفورا لكفرهم وإعراضهم ، ووصفوه بأنه رجل مسحور ، وأنكروا أن تبعث العظام والرفات ، مع أنهم لو تحولوا وصاروا حجارة أو حديدا أو غير ذلك ، فإنه تعالى يعيدهم كما فطرهم أول مرة .

١١ ــ وتضمنت أنه تعالى فضل بعض النبيين على بعض ، ومن أمارات هذا التفضيل أن يكون لهم كتب خاصة بهم ، كداود عليه السلام ، حيث آتاه الله زبورا .

١٢ ــ وبينت أن شركاء المشركين لايملكون كشف الضر عنهم إذا دعوهم ، وأن المعبودات العاقلة التى يعبدونها لا تقرهم على عبادتهم لها ، لأنها تتبارى فى طلب الوسائل أيها أقرب فى الوصول إلى رضا الله تعالى ، ويرجون رحمته ويخشون عذابه ، كما هو الشأن فى الملائكة التى يعبدونها ومن على نهجهم من البشر .

١٣ ــ وتضمنت أنه تعالى لم يحقق لهم ما طلبوه من الآيات الكونية حتى لايهلكهم بالكفر بها ، كما أهلك أمثالهم ممن كذبوا رسله قبلهم .

١٤ ــ وأنه تعالى أمر ملائكته بالسجود لآدم ، وأن إبليس تكبر على أن يسجد له وقد خلق من طين ، وأن إبليس توعد ذريته بإغوائهم إلا قليلا منهم ، وهم المؤمنون الصالحون الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً » .

١٥ ــ وأنه تعالى كرم بنى آدم ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، ولذا كلفهم بعبادته ، وأنه سيدعو كل أمة بإمامها يوم القيامة ، وإمام كل أمة كتابها ، فيقال يا أهل القرآن يا أهل التوراة ماذا فعلتم بكتابكم ؟ أو إمامهم نبيهم ، ويعطى كل واحد منهم كتابه فيعرف منه مصيره .

١٦ - كما اشتملت على تكليف النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه بأن يقيموا الصلاة لدلوك الشمس أى زوالها عن وسط السماء إلى سواد الليل ، ووقت قراءة الفجر ، يشير بذلك إلى إجمال مواقيت الصلوات الخمس ، وتكليفه صلى الله عليه وسلم خاصة بقيام الليل والتهجد على سبيل الوجوب ، رجاء أن يبعثه الله المقام المحمود يوم القيامة ، وهو مقام الشفاعة العظمى .

١٧ - وبينت أن الروح من أمر الله ، وأن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا لا يؤهلهم لمعرفة حقيقتها ، وأن القرآن معجز للإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

١٨ - وأنه لم يمنع الناس أن يؤمنوا حين جاءهم الهدى على لسان أنبيائهم إلا زعمهم أن الله لا يبعث من البشر رسولا ، وأن الله رد عليهم بأنه لو كان إرسال الملائكة للبشر يجعل الملائكة يمشون على الأرض مطمئنين ولا يطيرون ، بل يبقون بينهم كشأن البشر لنزلَ عليهم من السماء ملكاً رسولا ، ولكن الملائكة خلقت لتطير فى ملك الله ، ولو حولوا إلى مثل البشر لاشتبه أمرهم عليهم ، فزعموا أنهم بشرٌ وليسوا ملائكة ولو بقوا على خلقتهم لصعق البشر من لقائهم .

١٩ - وتضمنت إيتاء موسى تسع آيات بينات ، وزعم فرعون أنه مسحور ، وكفره بما جاء به من البينات ، وإغراقه وجنوده جزاء كفرهم وعنادهم .

٢٠ - وختمت السورة بأمره صلى الله عليه وسلم وأمر أمته تبعاً له ، بالحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك فى الملك ولا ولى من الذل ، وأن يكبره تكبيرا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾)

المفـردات :

(سُبْحَانَ) : هو علم للتسبيح عند الزمخشرى ، والتسبيح التنزيه ، ولا يجوز استعماله شرعاً إلا فى الله تعالى .[1]

(أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ) : الإسراءُ سير الليل كالسُّرى ، تقول : أَسريتُ وسريتُ إذا سرتَ ليلا ، وأَسريتُ به سرتُ به ليلاً ، والمراد بالعبد هنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(المَسْجِدِ الْحَرَامِ) : هو مسجد مكة المشتمل على الكعبة .

(الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) : مسجد بيت المقدس ، ووصف بالأَقصى لأَنه أَقصى أى أَبعد مسجد يعظم بالزيارة بالنسبة لأَهل المسجد الحرام .

(بَارَكْنَا حَوْلَهُ) : البركة : الخير والنماءُ والسعادة ، ومباركة الله حول المسجد الأَقصى حسية بجعل الأَرض حوله دائمة الثمار والخيرات ، ومعنوية بدفن الأَنبياء والصالحين فيها .

البيـــان

١ ـ كانت رحلة الإسراء العظيمة فى أُخريات العهد المكى بعد أَن قاسى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش ومن حولهم من العنت والإيذاء ، والإعراض والكبرياء ما يهدم الأَجساد ، ويحطم القوى ، فلهذا أَكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم برحلة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، وبرحلة المعراج من بيت المقدس إلى ما وراء سدرة المنتهى ، لينفس عنه

(١) قال صاحب الكشف انتصارا للزمخشرى : لا تمنع علميته من إضافته كما فى حاتم طى ، وعنترة عبس ـ انظر الآلوسى .

ما أصابه ، ويسبغ عليه أسمى نعمه ورحمته ، ويكشف له عن بعض آياته ، ترفيها له ومكافأة على ماناله من أذى قومه ، وشحذًا لهمته فى المرحلة المقبلة للدعوة ، فقد كان الإسراءُ والمعراج به صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، حيث اشتد إيذاءُ قريش له بعد وفاتهما .

وحكى أبو حيان فى البحر أنه أُسرى به صلى الله عليه وسلم فى سبع عشرة من ربيع الأول ، وعمره إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر ، وثمانية وعشرون يوما ، وهذا التاريخ يقتضى أن الإسراء كان قبل الهجرة بعام واحد ، وأنه كان فى أواخر السنة الثانية عشرة من النبوة تقريبا .

المعنى الإجمالى للآية

تنزيها شاملا لله الكبير المتعال الذى نقل عبده المختص به ، ونبيه الحقّ به ، نقله وأسرى به ليلا بكيفية عجيبة من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، الذى أحاطه بالبركة والخير الكثير ، من رياض وغياض وثمار وأنهار ، وزروع وأشجار ، ومن نفحات الأنبياء والصالحين ، وبركات رسل الله الراحلين ، وقد نقله وأسرى به لكى يطلعه على بعض آياته العظيمة ، إعظاما لمقام عبده ورسوله ، وتنفيساً عنه بعد ما أجهده قومه ، إنه تعالى هو السميع لأقوال عبده ورسوله فى تبليغ دعوة ربه ، العليم بأفعاله الخالصة عن شوائب الهوى ، المقرونة بالصدق والهمة ، الجديرة بالقرب والزلفى ، فتعالى الله الذى له هذه القدرة وهذا العلم ، تعالى عن جميع النقائص ، فلا يكون اصطفاؤه لعبده الخصيص به إلا حكمة وصواباً .

المعنى التفصيلى

كيف كان الاسراء :

جاء حديث قصة الإسراء فى جميع كتب السنة ، وذكر النَّقَّاشُ ممن رواه عشرين صحابياً فهو لهذا من الأحاديث المتواترة ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك بن صعصعة قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أَنَا فى الحِجْرِ – وفِى رِوَايَةٍ فِى الحَطِيمِ – بَيْنَ النَّائِمِ والْيَقْظَانِ ، إِذْ أَتَانى آتٍ فَشَقَّ مَا بَيْنَ هذهِ

إلى هذه ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فَغَسَلَهُ ، ثُمَّ أُعِيدَ ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ ، يُقَال لَهُ الْبُرَاقُ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْد مُنْتَهَى طَرْفِه ، قَالَ فَركِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بِها الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَأَخذتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ : قَالَ : ثُم عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّماءِ » إلى آخر قصة المعراج ، وسنَعْرِض لها إن شاء الله تعالى فى تفسير سورة النجم عند قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِند سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ». وجاء فى رواية البخارى فى طريقة غسل قلبه الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : « فاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ من ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ إيماناً فَغَسَلَ قَلْبِي ثُمَّ حَشَا ، ثُمَّ أُعِيدَ » . وكان الإسراءُ والمعراج والعودة فى بعض ليلة واحدة ، واختلف العلماءُ هل كانا بالجسد والروح ، أو بالروح فقط ، أو كانا مناما ، والجمهور على أنهما كانا بالجسد والروح يقظة ،ويشهد لذلك التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بقوله : (بِعَبْدِهِ)والعبد يشمل الجسد والروح معاً ، كما يشهدله إعداد البراق له وركوبه إياه ، ووصفه بأنه كان يضع حافره عند منتهى بصره ، ومن أقوى الأدلة على ذلك ما حدث له صلى الله عليه وسلم من شق صدره وغسله بالإيمان وحشوه ، فإنَّ هذا كناية عن أنه تعالى كلف الملك بإعداده جسديا وروحياً لتلك الرحلة الخطيرة ، وشحنه بالقوى الإلهية التى تجعله فى منعة من الأخطار الكونية أثناء هذه الرحلة ، وتجعله أيضاً مستعدًّا لاستقبال الأنوار الإلهية ، ومن العلماء من قال : إن ذلك كان مناما ، وبه قال الحسن ، وروى ذلك عن عائشة ومعاوية ، ورد ذلك بأن عائشة - رضى الله عنها - كانت حينذاك صغيرة ولم تكن معه صلى الله عليه وسلم ، وأن معاوية كان كافرًا فلا يصح ما أُسند إليهما ، أما الاستناد إلى قوله تعالى :

« ومَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ » فهو دليل عليهم وليس دليلا لهم ، فإن الرؤيا هنا بمعنى الرؤية البصرية كما فى قول الراعى يصف صائدًا :

وكبر للرؤيا وهشّ فؤاده ... وبشر قلبًا كان جمًّا بلابله

ولو كانت رؤيا منامية لما كانت فتنة للناس حين علموا بها ، لأن النائم قد يرى نفسه فى السماء وأنه يطير بين المشارق والمغارب ولا يكذبه أحد ، ومثله يحدث عادة لكثير من الناس مناما .

وسيأتى بيان فتنة قريش حين أخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء ، عند شرح قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآن ... »[1]

والعبودية لله عند العارفين من أهل الحق أشرف الأوصاف ، ولقد كان المحبون للبشر يفخرون بها ، ومن ذلك قول قائل فى محبوبته :

لَا تَدْعنِى إِلَّا بِيَا عَبْدَهــــا فَإِنَّــهُ أَشْـرَفُ أَسْمَائِيا

فكيف بالعبودية لمالك الملك والملكوت ، على أن فى وصفه صلى الله عليه وسلم بالعبودية وقد وصل إلى ما هو عليه من الرفعة العلية ، سدًّا لِبَاب الْغُلُوِّ فيه ، كما وقع للنصارى مع نبيهم عيسى عليه السلام .

قال القشيرى : لمـــا رفعه الله إلى حضرته السنية ، ورقاهُ فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأُمة .

والمسجد الحرام وقت الإسراء كان مليئاً بالأصنام التى كان العرب يعبدونها قبل إيمانهم ، وتسميته بالمسجد الحرام مع هذا ، لأن المسجد فى اللغة مكان السجود وهو الخضوع ، وكانوا فى عبادتهم لأصنامهم خاضعين لها أشد الخضوع ، وكان حرماً آمناً يحرم فيه القتل والأخذ بالثأر عندهم .

والمسجد الأقصى بيت المقدس ، فكان مسجد النبيين ومصلاهم[2] ، بناه يعقوب بعد بناء إبراهيم الكعبة بأربعين سنة ، ولهذا قال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِين ».ثم شرع فى تجديده داود ، وأتمه سليمان ابنه عليهما السلام ،

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٠

(٢) فلذا أطلق عليه لفظ المسجد ، ويصح أن يكون إطلاق المسجد على كليهما باعتبار ما آل إليه أمرهما فى الإسلام .

وهو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال لأن ثواب الصلاة فيها يضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِد ، مَسْجِدِى هٰذَا والمَسْجِدِ الْحَرَامِ والمَسْجِد الأَقْصَى » والصلاة فى المسجد الحرام أعظمها أجرًا ، ثم المسجد النبوى ثم المسجد الأقصى ، والغاية من الإسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أن يطلع الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على بعض آيات قدرته تعالى فى رحلة الإسراء والمعراج ، وما وقع فيها من الأعاجيب ، وكان ذلك من قبيل الإعداد للمرحلة التالية للهجرة ، ولاشك أن فى شق صدر النبى صلى الله عليه وسلم وشحنه بالإيمان والعلوم والتقوى الإلهية ، أثرًا عظيماً فى تحمله لتلك الرحلة الكونية العظيمة ، التى رأى فيها بعض ملكوت السموات والأرض ، وفى تقوية روحه ومضاعفة همته وعزيمته، لكى يستقبل المرحلة التالية للهجرة وهو جمُّ النشاط عظيم الاحتمال .

(وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣)

المفردات :

(بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) : أبناء يعقوب عليه السلام ، فقد كان يدعى إسرائيل .

(وَكِيلاً) : ربا تكلون إليه أموركم ، (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) : ذرية من آمنوا بنوح وحملناهم معه فى السفينة ، لننجيهم من الغرق بالطوفان .

التفسير

٢ ، ٣ ـ (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ أَن لَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) :

لما بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه بارك حول المسجد الأقصى ، جاء بهاتين الآيتين ليبين بعض البركات الروحية هناك ، حيث آتى موسى الكتاب لهداية بنى إسرائيل الذين أسكنهم الله الشام حول المسجد الأقصى ، بعد هجرتهم من مصر وخروجهم من التيه . ثم إن هاتين الآيتين وما بعدهما تعتبر تمهيداً للحديث عن هداية القرآن للتى هى أقوم ، ليعرف بنو إسرائيل أنهم لم ينصفوا أنفسهم حين أعرضوا عن الطريق الأقوم ، والشريعة المثلى ، بعدم إيمانهم بالقرآن ومن أنزل عليه القرآن ، فى حين أنه منّ الله تعالى عليه بهذه المنزلة العلية ، حيث أسرى به فى بعض ليلة ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى ماوراء سدرة المنتهى ، حيث أوحى الله تعالى إلى عبده ما أوحى « مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى » .

معنى الآيتين

وأعطينا موسى الكتاب فى ألواح مشتملة على التوراة ، وجعلنا هذا الكتاب هادياً لبنى إسرائيل إلى الحق ، بعد أن دانوا فى مصر بعبادة العجل الذى كان يعبده الفراعنة ، وقد أعطينا موسى هذا الكتاب لكيلا تتخذوا سواى ربًّا تكلُون إليه أموركم ياذرية من حملناهم فى السفينة مع نوح ، وأنجيناهم من الغرق ، إن نوحاً كان عبدًا شكورًا لنا ، فلم يتخذ ربًّا سوانا ، وكذا من حملناهم فى السفينة معه ، فلهذا حفظناهم من الطوفان وأغرقنا سواهم ، فكونوا يابنى إسرائيل على سنة من أنجيناهم من الغرق من أهل التوحيد ، لتكونوا بمنجاةٍ من عقوبة أهل الشرك .

وفى التعبير عن بنى إسرائيل ، بذرية من حملنا مع نوح ، تذكير بفائدة التوحيد وأثره فى الدنيا ، وتحذير من الشرك وعقوبته ، كما أن فيه إشارة إلى أن غيره تعالى من الوكلاء والأرباب المزعومة ، لا تستطيع أن تأتى بمثل هذه الآية الكبرى التى تتمثل فى الطوفان العالى لإغراق من لم يعبدها ، وفى السفينة لإنجاء من عبدها ، فهى أحقر من أن تهلك أو تنجى ذبابة ، فسبحان الكبير المتعال الذى ينجى المؤمنين ويهلك الكافرين ، بما لا يتصوره البشر ولا تطيق مثله جميع القوى والقدر .

وأجاز بعض العلماء عود الضمير فى قوله تعالى : « إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » إلى موسى عليه السلام ، تعليلا لإيتائه الكتاب ، فكأنه قيل وآتينا موسى الكتاب هداية لقومه ، لأنه

كان عبدًا شكورًا ، وما اخترناه أظهر وأولى ، لما فيه من رجوع الضمير إلى أقرب مذكور ، وهو نوح عليه السلام .

(وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) : أى أوحينا إليهم[1] على سبيل الجزم والقطع .

(فِى الْكِتَابِ) : أى فى التوراة ، (فِى الْأَرْضِ) : أى فى جنس الأرض ، أو هى الشام وفيها بيت المقدس . (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) : العلو ، الارتفاع ، والمراد به هنا الاستكبار والتغلب على الناس بالظلم . (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ) : سلطنا عليكم . (عِبَادًا لَّنَا) : أى ناسا مملوكين لنا كى يؤدبوكم ، ولا يقتضى وصفهم بالعبودية أن يكونوا مؤمنين فالكافر والمؤمن عباد مملوكون لله ، تجرى عليهم أحكامه .

(أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ) : أصحاب قوة وبطش شديد فى الحروب. (فَجَاسُوا[2] خِلَالَ الدِّيَارِ) : أى ترددوا بينها لطلبكم وعقابكم . (وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) : أى وكان ما ذكر من إرسال العباد ليعاقبوكم ، وعدًا نافذًا لا مفر من وقوعه ، والوعد يستعمل فى الخير والشر ، ويفرق بينهما بحسب المقام ، وقد يفرق بينهما لفظاً ، فيقال فى الخير وَعَدَ ، وفى الشر أوعدَ ومنه قول الشاعر :

وإنى وإن أوعدته أو وَعَدتُه ... لمُخْلفُ إيعادى ومنجزُ موعدى

وقد يقال فى الخير وَعْدٌ وفى الشر وَعِيدٌ .

(١) تفسير القضاء بالإيحاء لتعديه بحرف (إلى) وفى إحدى الروايتين عن ابن عباس أن المعنى (وقضينا عليهم) فتكون إلى بمعنى على .

(٢) الجوس طلب الشىء باستقصاء .

التفسير

٤ - (وَقَضَيْنَآ إِلَى بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) الآية .

بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه أعطى موسى التوراة ليستهدى بها بنو إسرائيل ، جاءت هذه الآية لتبين أنهم انحرفوا عنها وأفسدوا فى الأرض مرتين ، مخالفين ما أمرهم الله به فى التوراة من الصلاح والاستقامة

والمعنى : وأوحينا إلى بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة ، أوقضينا عليهم بسبب انحرافهم عن هداه ، لتفسدن فى الأرض التى تعيشون عليها فى الشام ، أو فى جنس الأرض - لتفسدن فيها - مرتين ، ولتستكبرن استكبارًا كبيرًا على الله تعالى ، فلا تلتزمون بهداه ، وعلى الناس فتغلبونهم وتظلمونهم وتسيئون إليهم ،وتحديد هاتين المرتين اللتين أفسدوا فيهما متعذر لأنهم قد أفسدوا مرات كثيرة منذ نزلت التوراة حتى الآن ، ومما جاء فى إفسادهم ، أنهم لما مات ملكهم تنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضا ،ولم يسمعوا النصح من نبيهم زكريا ، بل عَدَوْا عليه وقتلوه ، وقد رواه ابن إسحاق ،وفى الكشاف أن أولاهما قتل زكريا وحبس أرميا ، وثانيتهما قتل يحيى وإرادة قتل عيسى عليهم السلام ومنها أنهم فى سنة (٧١) إحدى وسبعين بعد الميلاد حاولوا أن يثيروا المتاعب للرومانيين فبطش بهم القائد الرومانى (ضيطس - أو تيتوس) وقتل منهم خلقاً كثيرين ، وخرب هيكلهم المقدس الذى كانوا يفاخرون به الأمم ، ويباهون بضخامته وما فيه من آنية الذهب والفضة ، فتفرق كثير منهم فى الأرض ، وذهب بعضهم إلى الحجاز ، فتكون منهم يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع حول المدينة ، ويهود خيبر وغيرهم كما فر بعضهم إلى الشام ومصر وغيرهما.

ومن هاجر منهم إلى الحجاز اختاروها لأنهم قرءوا فى التوراة خبر نبى يبعث من بين إخوتهم ، وهم بنو إسماعيل ، وأن دينه سيذيع وينتشر من يثرب - أى المدينة - فلذا أقاموا حولها ليؤازروه ، حتى يعيد إليهم مجدهم وكانوا إذا تحاربوا مع الأوس والخزرج قبل البعثة وانتصروا عليهم ، قالوا لكليهما : سيبعث نبى من بنى إسماعيل وسنؤمن به ونقتلكم

معه قتل عاد وإرم ، وكانوا أحيانا يخرجون التوراة ويضعون أصابعهم على اسمه صلى الله عليه وسلم ، ويستفتحون به على أعدائهم ، فكانوا يقولون اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذى وعدتنا أن تبعثه آخر الزمان ،أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون ،فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، قال تعالى : « وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ »[1] . وفى سنة ١٣٥ ميلادية ثاروا مرة أخرى على الرومان ، فاحتلوا المنطقة اليهودية فى القدس ودمروها وقتلوا أهلها ، وهدموا هيكلها من جديد ، وحرثوا أرضه ، وبنوا مكان المنطقة اليهودية مدينة أخرى حرموها على اليهود[2] . إلى غير ذلك من حوادث الإفساد .

وترتيبها زمناً أو أثرا لتعرف المرتان المقصودتان من الآية الكريمة فيه صعوبة إن لم يكن متعذرًا ، ولهذا قال الجبائى : إن الله تعالى ذكر إفسادهم فى الأرض مرتين ، ولم يبين ذلك فلا يقطع بشىء مما ذكر .

٥ - (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) :

أى فإذا جاء موعد عقابكم على أولى مرتىْ إفسادكم فى الأرض ، سلطنا عليكم عبادًا لنا أصحاب قوة شديدة وبطش فى الحروب ، فترددوا بين دياركم وتخللوها طلباً لكم ، وكان العقاب الموعود على تلك الإفسادة وعدًا نافذًا لا خلف فيه ، قال القرطبى فى هؤلاء العباد : هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر[3] فى المرة الأولى حين كذبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه ، قاله ابن عباس وغيره ، وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولو بأس شديد : انتهى كلام القرطبى .

وقال الآلوسى : الجمهور على أن فى هذه البعثة خرب هؤلاء العباد بيت المقدس ووقع القتل الذريع والجلاء والأسر فى بنى إسرائيل ، وحرقت التوراة : اهـ

ولا تغفل عما قلناه من أن تعيين المرة الأولى وعقابها اجتهادى لا قطعى .

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩

(٢) وكان ذلك بقيادة الحاكم الرومانى هارديان .

(٣) وهو المعروف عند المؤرخين باسم نبو خذ نصر .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾)

المفردات :

(رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) : جعلناكم تغلبونهم بعد أن غلبوكم ، وأصل الكرة الرجعة ، وإطلاقها على الغلبة هنا لما فيه من الرجوع إليهم بعد هزيمتهم منهم .

(أَكْثَرَ نفِيرًا) : النفير والنافر من ينفر مع الرجل من عشيرته لمؤازرته والمراد من قوله « أَكْثَرَ نفِيرا » أكثر عددا مما كنتم أو من أعدائكم[1] . (وإِنْ أَسَأْتمْ فَلَهَا) : أى وإن أَسَأْتُمْ فعليها ، فاللام هنا بمعنى على . (وَعْدُ الآخِرَةِ) : وعد المرة الآخرة من مرتَىِ الإفساد .

(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكمْ) : ليظهروا المساءة عليها بسبب ما نالكم من أذاهم .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ) : المراد بالمسجد هنا بيت المقدس . (وَلِيُتَبِّرُوا مَاعَلَوْا تَتْبِيرًا) : وليهلكوا ما غلبوه واستولوا عليه إهلاكا شديدا . (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) : وإن عدتم للإفساد عدنا للعقوبة .

(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً) : وجعلناها لهم سجنا يحصرهم ويحبسهم[2] ويمنعهم من الإفلات .

---

(١) قيل النفير مصدر ، وفعله نفر بمعنى خرج ، أى أكثر خروجا للغزو ، قال الشاعر :
فأكرم بقحطان من والد وبالحميريين أكرم نفيرا

(٢) من الحصر وهو الحبس وهو إما اسم جامد لا يلزم تأنيثه مع المؤنث ، وإما وصف بمعنى فاعل ،على أنه صيغة نسب سماعية ، أى ذات حصر ومنسوبة إليه ، كما فى لابن وتامر أى منسوب إلى اللبن والتمر .

التفسير

٦ - (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) :

أى ثم رددنا لكم الدولة والغلبة ورجعناها لكم على من غلبوكم وتسلطوا عليكم وذلك بعد أن صلحت أحوالكم واستقامت أموركم ، واتحدت كلمتكم ، وعملتم بنصائح أنبيائكم ، وأمددناكم بأموال كثيرة بعد مانهبت أموالكم ، وأمددناكم ببنين بعد ماسبيت أولادكم ، وجعلناكم أكثر رجالا ينفرون معكم للقتال ، بعد ماقل رجالكم الذائدون عنكم ، فاستطعتم بما أمددناكم به من هذه النعم ، أن تستردوا حريتكم وتعود إليكم دولتكم ، وينتهى استعباد أعدائكم لكم .

ويفسر أبو حيان فى البحر إعادة الكرة عليهم بقوله : إنَّ ملكا غزا أهل بابل ، وكان بختنصر قد قتل من بنى إسرائيل أربعين ألفا ، ممن يقرءون التوراة ، وأبقى عنده بقية فى بابل فلما غزاهم ذلك الملك وغلب عليهم تزوج امرأة من بنى إسرائيل فطلبت منه أن يرد بنى إسرائيل إلى ديارهم ففعل ، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن مما كانوا ، انتهى .

ولعل أبا حيان يشير بما يقول إلى غزو الفرس لأهل بابل ، فى سنة ٥٣٩ قبل الميلاد غزا الفرس فلسطين واحتلوها بعد أن احتلوا بابل ، وألحقوها بدولتهم قرنين من الزمان ، وفى عهدهم عادت قبيلة يهوذا من بقايا الأسر البابلى إلى القدس ، وأعادت بناء الهيكل من جديد .

وقيل رد الكرة : بأن سلط الله تعالى داود على جالوت فقتله ، وعادت الدولة إليهم بملك طالوت عليهم ، وتلاه داود عليه السلام ، ثم سليمان ثم انقسموا وتحاربوا ، فسلط الله عليهم عباده للمرة الثانية ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك بمشيئة الله تعالى .

٧ - (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) :

بعد أن يبين الله تعالى أنه رد لهم الكرة على أعدائهم ونصرهم ، جاءت هذه الآية ، لتبين أن مانالهم من العقاب أولا والنصر ثانيا إنما يجرى على قاعدة الجزاء العادل فإن هم أحسنوا أثيبوا ، وإن هم أساءوا عوقبوا .

والمعنى : إن أحسنتم يا بنى إسرائيل بعودتكم إلى طاعة ربكم ، كانت منفعة هذا الإحسان لكم ، حيث يثيبكم عليه فى الدنيا النصر والثراء وكثرة الأولاد ، وإن أسأتم بالبغى والطغيان والاستعلاء ، كانت مضرة هذه الإساءة عائدة عليكم ، وقد عرفتم هذا الدستور الإلهى ، فيما تناوب عليكم من الضراء أولا بسبب إفسادكم الفظيع أول مرة ، والسراء ثانياً حينما تبتم إلى الله ، وعرفتم طريق الصلاح والاستقامة .

(فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوٓءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً) :

فإذا جاء عقاب المرة الآخرة من الإفساد والاستعلاء الكبير على الناس ، بعثنا عليكم يا بنى إسرائيل عباداً لنا أقوياء أشداء لكى يعاقبوكم على المرة الثانية من الإفساد ، وليظهروا بهذا العقاب العنيف آثار المساءة الشديدة على وجوهكم من الحزن والخوف والرعب ، والصفرة والحيرة — فإن الأعراض النفسية تتجلى آثارها واضحة على الوجوه — وبعثناهم أيضاً ليدخلوا المسجد الأقصى — بيت المقدس — بالسيف والقهر والغلبة والإذلال كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ويهلكوا ما علوه وغلبوه واستولوا عليه تتبيرا وإهلاكا شديداً لا يوصف

واختلف فى المبعوث لعقاب بنى إسرائيل فى هذه المرة ، فقيل هو الإسكندر وجنوده ، وقيل هو ملك من ملوك الطوائف اسمه « بيردوس »[1] ، وهؤلاء الملوك ظهروا بعد أن استولى الإسكندر على الفرس وقتل « دارا » ملكهم ، فقامت من بعده دولة ملوك الطوائف ، وعددهم يربو على سبعين ملكا ، ومدة ملكهم خمسمائة واثنتا عشرة سنة وكانت هذه العقوبة على قتلهم نبيهم يحيى عليه السلام ، وكان بين عقوبة بختنصر لهم وهذه العقوبة نحو سبعمائة وخمسة وثلاثين عاما ، وبينها وبين قتل الإسكندر لدارا نحو ثلاثمائة سنة ، وقيل غير ذلك ، انظر الآلوسى .

وقال بعض العلماء الأجلاء : إن معرفة الأقوام المبعوثين بأعيانهم وتاريخ بعثهم وتعيين سبب العقوبة مما لا يتعلق به كبير فائدة ، إذ المقصود أنه لما كثرت معاصى بنى إسرائيل ، سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى : اهـ

وهذا أسلم والله تعالى أعلم .

---

(١) وقد رجح هذا الرأى صاحب الكشاف .

٨ - (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً) :

أى لعل الله تعالى يرحمكم بعد العقاب بالبعث الثانى ، إن تبتم عن المعاصى ، ولازمتم طاعته ، فيكف عنكم عقابه وانتقامه ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمنا ، وإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم فى الدنيا ، على نحو ما حدث فى عقاب المرتين السابقتين أو أشد أو أدنى حسب درجة آثامكم ، وجعلنا جهنم لجميع الكافرين منكم ومن غيركم سجنا حاصرا لهم ومحيطا بهم ، فلا مهرب لهم منه ، فاحذروا العودة إلى آثامكم ، لكى تنجوا من عقوبة الله فى الدنيا والآخرة ، ولقد عاد هؤلاء إلى الإفساد مرة بعد أخرى ، فسلط الله عليهم من دمرهم وشتتهم فى بقاع الأرض ، وتراهم دائما يتجمعون فى مكان واحد ، تتجمع فيه بيوتهم ، ويغلقون مسالكه حتى لا يعرف أحد أسرارهم ، وليأمنوا الاعتداء عليهم ممن يتآمرون ضدهم وقد تآمروا على النبى صلى الله عليه وسلم وقصدوا قتله ، فسلطه الله على بنى قريظة ، فقتل رجالهم ، وأجلى بنى النضير وقاتل أهل خيبر ، وضرب الجزية على من بقى منهم حول المدينة .

(إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾)

المفردات :

(يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) : يرشد للطريقة التى هى أعدل [1] .

---

(١) قيل إن التفضيل هنا غير مراد ، فالمقصود أنه يهدى إلى الطريق المستقيمة دون سواها إذ لا مشاركة بين طريق القرآن وسواها فى الاستقامة ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان والرازى وخلاصته أن أفعل التفضيل هنا على غير بابه ، وفى ذلك يقول تعالى (وذلك دين القيمة) .

(أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) : أعددنا لهم عذاباً شديد الإيلام .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ) : أى يطلبه لنفسه ، وكُتِبَتْ (يَدْعُ) فى المصحف بدون واو مراعاة للنطق ، وأصلها يدعو بالواو بعد العين .

(دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) : أى يدعو لنفسه بالشر مثل دعائه لها بالخير فلا يفرق بينهما لجهله .

التفسير

٩ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم أجراً كَبِيراً) :

بين الله فيما تقدم أنه تعالى أعطى موسى كتاب التوراة وجعله هدى لبنى إسرائيل ، وأنهم لم يعملوا به ، بل أفسدوا فى الأرض ، وجاءت هذه الآية والتى بعدها لبيان أن هذا القرآن أعطاه محمدا صلى الله عليه وسلم لكى يهدى الناس جميعا إلى ملة الإسلام ، فإنها أقوم الملل ، وأن على جميع الخلق أن يؤمنوا به ومنهم أهل الكتاب .

والمعنى : إن هذا القرآن الذى أنزلناه عليك يا محمد يهدى إلى الملة التى هى أقوم الملل وأعدلها وهى ملة الإسلام إلى الله ، والتوحيد الخالص من كل شوائب الشرك ، والتنزيه له تعالى عن شوائب المماثلة للبشر ، وعن سمات النقص التى لم تتورع عنها الملل والنحل المختلفة وكما يهدى إلى الملة التى هى أقوم يبشر المؤمنين بأحكامه وعقيدته ، الذين يعملون الأعمال الصالحة التى دعاهم إليها - يبشرهم - بأن لهم فى مقابل إيمانهم وصالح أعمالهم أجراً كبيراً فى ذاته وفى أوصافه الكريمة ، ينالونه فى جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين .

١٠ - (وأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

معطوف على ما بُشِّرَ به الذين آمنوا داخل فى حيز البشارة لهم ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين الصالحين بأجر كبير لهم ، ويبشرهم أيضاً بأن أعداءهم الذين لا يؤمنون بالآخرة الإيمان الصحيح ، أعددنا لهم فيها عذابا مؤلما ، فإن الانتقام من العدو سرور يستحق أن يبشر به عدوه ، وبخاصة إذا كانت العداوة من أجل الحق تبارك وتعالى [1] .

(١) ومن أجل ذلك يسخر المؤمنون من الكافرين فى الآخرة ، قال تعالى : «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون» الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ من سورة المطففين .

ويصح أن يراد من البشارة مطلق الإخبار الشامل للإخبار بما يَسُرُّ وبما ليس كذلك على سبيل المجاز ، ومن استعمال التبشير فى العذاب قوله تعالى فى سورة النساء: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » (١٣٨) وفى سورة التوبة :«فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (٣٤)

١١ - (وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً) :

بينت الآيتان السابقتان منزلة القرآن الكريم من الهداية للطريقة التى هى أقوم ، وبشارته للمؤمنين بحسن المثوبة ، وإنذاره للكافرين بشديد العقوبة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الإنسان لم يراع مصلحة نفسه حيث يطلب الشر ويتعجله بدل الخير ، والمراد بالإنسان الجنس ، وقد أُسند إليه حال بعض أفراده وهو الكافر والعاصى ، أو حاله بصفة عامة فى بعض أحيانه .

والمعنى على الأول مع ربطه بما سبق : أن هذا القرآن يهدى إلى الملة والشريعة التى هى أقوم ولكن الإنسان الكافر والعاصى يدعو لنفسه بالشر - أى يطلبه لها - بكفره وعصيانه - يدعو لنفسه بهذا الشر مثل دعائه بالخير وطلبه لها ، من غير تفرقة بين مايؤدى به إلى العقوبة وما ينتهى به إلى المثوبة جهلا منه وسوء تمييز ، وكان الإنسان بطبعه مبالغا فى العجلة حيث سارع إلى مايؤدى به إلى الضرر بغير تريث ولا مبالاة ، وتجاهل ماينتهى به إلى الخير والمنفعة عاجلها أو آجلها ،ولو تريث وفكر لاختار الإيمان والطاعة لحسن عاقبتها ، ولنبذ الكفر والمعصية لسوء منقلبها ، وقد منحه الله العقل ليقوم به غرائزه فلا عذر له فى إهداره وعدم الانتفاع بتقويمه .

والمعنى على الثانى : إن هذا القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير ، وهو فى بعض أحيانه يترك الدعاء بالخير ويدعو الله لنفسه وماله وأهله وولده بالشر لمرض أصابه أو غضب حل به ، أو ضجر من بليّة ومحنة ، وكان الإنسان بحسب غريزته وجبلته شديد العجلة ، لايميل إلى التأنى حتى تزول المحنة أو العارض الذى استتبع دعاءه ، ولو تأنى وتدرع بالصبر الذى يدعو إليه العقل والشرع ، لآثر الدعاء بالخير بدل الدعاء بالشر .

وقد جاء النهى عن ذلك صريحا ، فقد أخرج أبو داود والبزار عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَا تدْعُوا عَلَى أَنْفسِكمْ لَا تدْعُوا عَلَى أَولَادِكمْ لَا تدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكم ، لئِلَّا توَافِقوا مِن اللهِ تعَالى سَاعَةً فِيها إجَابَةٌ فيسْتجِيب لكمْ » .

(وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(آيَتَيْنِ) :علامتين ودلالتين على وجود الله وسائر كمالاته .

(فَمَحَوْنَآ آيَةَ الليْلِ) : أى أزلْنا ظلمته بضوء النهار . (مُبْصِرَةً) : أى مبصرا أهلها فِى ضوئها ، وإنما أُسند الإبصار لفظًا إلى آية النهار على سبيل المجاز ، لأَنها سبب الإبصار .

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ) : لتطلبوا رزقا من خالقكم ومربيكم .

التفسير

١٢ـ (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهار آيَتَيْنِ) :

بين الله قبل هذه الآية أَن هذا القرآن يَهدى للتى هى أَقوم ، ويبشر المؤْمنين ، وينذر الكافرين ، وجاءَ بهذه الآية ليهدينا بها إلى الطريق العقلى الهادى إلى معرفة الله ، وهو النظر فى آياته الكونية .

والمعنى : وجعلنا الليل والنهار فى تعاقبهما واختلافهما طولا وقصرا ، حسب اختلاف مطالعهما ومغاربهما ، وفى تباينهما ظلمة وضياءً حسب ظهور الشمس ومغيبها ــ جعلنا الليل والنهار فى ذلك كله علامتين تهديان العقل إلى أَن لهما صانعا حكيما ، ومدبرا عليما ، وقادرا عظيما ، ثم فصَّل حال الليل والنهار وفائدتهما فقال سبحانه : (فَمَحَوْنا آيَةَ الَّليْلِ)[1] : أى فجعلنا الليل الذى هو آية وبرهان على خالقه ، جعلناه ممحوّ الضوء مطموسه مظلما لايستبين فيه شىءٌ كما قال سبحانه : «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا» ويجوز أَن يكون المعنى : فأَزلنا

(١) إضافة آية إلى الليل بيانية ، يعنى آية هى الليل ، وكذا يقال فى آية النهار .

ظلمة آية الليل بالضوء الباهر والنور الساطع المنبعث من الشمس المشرقة .

(وَجعَلْنَآ آيةَ النَّهَارِ مُبْصِرةً . . . .) الآية .

أى وجعلنا النهار الذى هو آية على بارئه ومدبره – جعلناه مضيئا ، بحيث تتبين به المسالك والدروب وأسباب الأرزاق ، لكى تبتغوا وتطلبوا فى ضوئه رزقا من فضل ربكم لايتيسر لكم فى ظلام الليل ، ولتعلموا بتفاوت الليل والنهار وتعاقبهما وسائر أحوالهما عدد السنين التى مرت بكم ، وحساب الشهور والأيام والليالى ، وغير ذلك مما ترتبط به مصالحكم ومعايشكم وعباداتكم .

(وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) :

أى وكل شىء يرتبط بمعايشكم ومنافعكم الدنيوية والأخروية ، بيَّنه الله سبحانه فى القرآن تبيينا تاما لاالتباس فيه ولاخفاء ، كما جاء فى قوله لرسوله : « وَنزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىْءٍ » وبهذا ظهر كون القرآن هاديا للتى هى أقوم ظهوراً بينا .

واعلم أن القرآن اشتمل على قواعد كلية للعقائد والشرائع ، وأما التفاصيل الجزئية فقد أحالها الله تعالى على نبيه لتبيينها ، وذلك فى قوله سبحانه : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[1] .

فالصلاة فى القرآن أوجبها الله بنحو قوله : «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتاً » ولم يتعرض لكيفية أدائها وبيان أوقاتها ، وقد تكفل الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان ذلك بوحى من الله تعالى : «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى »[2] .

(١) سورة النحل : الآية ٤٤

(٢) سورة النجم : الآيات ٣ ــ ٥

(وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(طَآئِرَهُ) : أى عمله من خير أو شر ، وقيل المراد رزقه وأجله وعمله وجميع ماقدره الله له. (فِى عُنُقِهِ) : تمثيل لشدة لزوم عمله له . (يَلْقَاهُ مَنشُوراً) : أى يجده مبسوطا غير مطوى .

(حَسِيباً) : أى حاسبا عملك لك أو عليك

(وَلَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) : الوزر فى اللغة الحمل مطلقا ، والمراد به هنا الذنب ، أى ولا تتحمل نفس حاملة للوزر ذنب نفس أخرى .

التفسير

١٣ - (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِى عُنُقِهِ) :

فسر بعض العلماء الطائر هنا بالعمل - خيراً كان أو شرًّا - وفسره آخرون بجميع ماجرى به القدر وأحاط به العلم من الرزق والأجل والعمل والشقاوة والسعادة وسائر أحوال الإنسان ، وإطلاق لفظ (الطائر)على هذا أو ذاك على سبيل المجاز ،فكأنما يطير إلى العبد من عُش الغيب الذى علمه الله أزلا فى شأن عبده . وتفسير الطائر بالعمل هو الذى نختاره فى تفسير الآية ، لأنه المناسب لقوله تعالى فى آخرها : «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً » .

أى ونخرج للإنسان يوم قيام الناس من قبورهم وبعثهم لحساب ربهم - نخرج له كتابا يحوى تفاصيل أعماله خيرها وشرها ، يلقاه منشورا مبسوطا أمامه ليقرأه بنفسه ، ويتعرف على حسناته وسيئاته ، أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال : يَا ابْنَ آدَمَ بُسِطَتْ لَكَ صَحِيفَةٌ وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ ، أَحَدُهُمَا عن يَمينك ، والآخر عن شمالك حتى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ فَجُعِلَتْ فِي عُنقِكَ فِي قَبْرِكَ ، حَتَّى تَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُخْرَجُ لَكَ » : اهـ والمقصود من جعلها فى عنقه ارتباطها بصاحبها معنويا لاحسيًّا ، لأن الإنسان يَفْنَى فى قبره ، ولهذا قال الحسن فى آخر عبارته ، (حَتَّى تَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ فتخْرج لك) وبعد أن عرفنا أن أعمالنا تسجل علينا بهذه الآية الكريمة ، وبنحو قوله تعالى : «مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وأنها تنشر يوم القيامة ، فلهذا ينبغى للعاقل أن لا يملى على الملكين الكاتبين لصحيفته إلا الأعمال الصالحة التى يفرح ويسعد بنشرها وقراءتها يوم القيامة ، ويدعو غيره إلى قراءتها فرحاً بها وبحسن عاقبتها كما حكاه الله تعالى عن السعيد الذى أوتى صحيفته بيمينه بقوله : « هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ. فهوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ »[1] . وهَذَا القول يصدر منه بعد أن يقرأ كتابه ، تنفيذا لأمر الله تعالى إياه بقوله لكل مكلف سعيداً كان أو شقيًّا :

١٤ - (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) : فإذا قرأه وعرف منه حسن عاقبته قال ذلك .

والمعنى : يقال لكل إنسان بعد أن يجد كتابه منشورا مسجلا فيه عمله : اقرأ كتابك كفى بنفسك حاسبا عليك سيئاتك ، وحاسبا لك حسناتك ، فكل ذلك واضح مسطور فى الكتاب ، كما قال تعالى : «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فترَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً »[2] . وكما ترى المجرمين مشفقين مما فيه ترى الصالحين مستبشرين فرحين بما فيه كما تقدم بيانه .

---

(١) سورة الحاقة : الآيات ١٩ - ٢٣

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩

والآية ظاهرة فى أن كل مكلف يستطيع قراءة كتابه وإن لم يكن فى دنياه قارئا ، ولهذا كلف الله كل إنسان بقراءة كتابه ، قال قتادة : يقرأ فى ذلك اليوم من لم يكن قارئا فى الدنيا ، ومن العلماء من فسر كتاب الإنسان بنفسه ، فإن مايصدر عنه من خير أو شر يطبع فى نفسه وينقش فى روحه ، وهى فى دنياها مشغولة بواردات الحواس المتجددة مشغولة عن هذه الآثار المنقوشة فيها والثابتة على صفحتها ، فإذا انقطعت علاقتها بتلك الحواس قامت قيامة الإنسان ، وأدرك كل ماصدر عنه من خير وشر منقوشا وثابتا فى نفسه وروحه ، بعد أن انكشف عنها الغطاء بالموت الجسدى ، وكما يظهر ذلك من نفسه عقب موته ، يظهر له منها فى ساحة القيامة يوم النشور ، فيقال له حينئذ : اقرأ كتاب نفسك واذكر أعمالك ، كفى بنفسك محاسِبة لك بما ثبت فيها من عملك ، ومعلوم أن العبد إذا مات قامت قيامته الصغرى وأحسّ من نفسه بمصيره الذى ينتظره ، فإذا بعث قامت قيامته الكبرى وكان الحساب والجزاء .

ويقرِّب هذا المعنى للذهن أن الإنسان بدواعى المعانى يتذكر فى دنياه أمورا مضى عليها عشرات السنين ، وذلك ناشىء من انطباع صور الحوادث فى نفسه .

١٥ـ (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) :

بين الله فيما سبق أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين المهتدين بالأجر الكبير ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، وأنه لاينبغى للإنسان أن يطلب لنفسه الشر طلبه للخير ، فإن عمله ملازم له إلى يوم القيامة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن المهتدى بهدى القرآن هو الذى ينتفع باهتدائه ، وأن من ضل عنه فهو الذى يُضَر بضلاله ، أما المولى سبحانه فإنه لاينتفع بطاعة عباده ، ولايضر بمعصيتهم ، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فليس عليه إلا البلاغ .

والمعنى : أن من تأثر بمواعظ القرآن ، وتفتحت بصيرته لمعارفه ، واهتدى بهداه فلا تعود منفعة ذلك إلا عليه وحده ، وأن من انحرف عن سبيله ، وضل عن طريقه فلا يعود وبال ضلاله إلا عليه وحده دون سواه ، وتعالى الله أن تنفعه طاعة المهتدى ، أو

تضره معصية المنحرف ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة — جزاه الله عن دينه خير الجزاء .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) :

هذه الجملة مؤكدة لمضمون الجملة السابقة ، أى ولا تحمل نفس مثقلة بوزرها وحاملة لذنبها — لا تحمل ذنب نفس أخرى ، فكل امرىء بما كسب رهين ، فلو أمر شخص آخرَ بمعصية ، ووعده بأن يحمل عنه عقوبته ، فوعده كاذب وكلاهما مسئول ، فالآمر بالمعصية مسئول عن أمره بها ومعاقَب عليها ، ومنفِّذ المعصية مسئول عن تنفيذها ومعاقب عليها ، روى عن ابن عباس أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة لما قال : اكفروا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعلىَّ حمل أوزاركم : ا هـ وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[1] . فإن قيل إنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ الْمَيِّت يُعذبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْه » فإن فيه أخذ الإنسان بجُرْم غيره وقد أُجيب عنه بأن الحديث محمول على ما إذا أوصى بذلك قبل أن يموت ، أو أنه يتألم لمعصية أهله ببكائهم عليه وشقّهم الجيوب من أجله ، وعدم رضاهم بقضاء ربه ، فهو لهذا يعذب نفسيا ، وأما قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » فكل من المضل والضال حمل ذنب نفسه لا ذنب غيره ، فالمضل حمل ذنب إضلاله لغيره ، وغيره تحمل وزر ضلاله بسببه ، فالجهة منفكة ، وكل ما جاء على هذا النمط يُؤَول هذا التأويل .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) :

بعد أن بين الله تعالى أن عاقبة الهدى والضلال لاتعود إلا على صاحبيهما ، جاءت هذه الجملة لتبين عظيم رحمة الله وعدالته وفضله .

والمعنى : وما صح ولا استقام فى حكمتنا وسنتنا أن نعذب أحدًا بنوع ما من العذاب دنيوياً كان أو أخروياً — على فعل شىء أو ترك آخر ، حتى نبعث رسولا يهدى إلى

(١) العنكبوت : آية ١٢

الحق ، وينهى عن الباطل ، ويقيم الحجج ويبين الشرائع ، حتى تتم أسباب التكليف وتقوم به حجة الله على خلقه .

واستدل الأشاعرة وفقهاء الشافعية بالآية على أن أهل الفترة ناجون وقد أطلقوا القول فى ذلك .

وبما أنه قد صح تعذيب جماعة من أهل الفترة ، فقد أجيب عنهم بأن أحاديثهم آحاد لا تعارض القطع بعدم التعذيب قبل البعثة - كما دلت عليه الآية - وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر مختص به يقتضى ذلك ، علمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، نظير ما قيل فى الحكم بكفر الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام مع صباه .

وقيل إن تعذيب هؤلاء المذكورين فى الأحاديث مقصور على من غير وبدل من أهل الفترة بما لا يعذر به ، كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع ، كما فعل عمرو بن لحى الذى استحدث عبادة الأوثان ولا يخفى أن هذه الإجابات عن هؤلاء لاتتفق مع إطلاقهم القول بأنه لا وجوب إلا بالشرع ولا تكليف قبل البعثة ، قال الآلوسى[1] : ولو ثبت أن من جاءت الأحاديث بتعذيبهم فى الفترة بين الرسل كانوا من أتباع رسول سابق بقى شرعه حينذاك كعيسى عليه السلام لم يبق إشكال - انتهى بتصرف يسير .

ويقول المعتزلة : إن الإيمان بالله واجب بالعقل قبل البعثة وبعدها ، ويحتجون بأن معرفة الله لايمكن الوصول إليها إلا بالعقل حتى بعد البعثة ، ولهذا يقول الله تعالى : « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ». ويقول : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ». فالله تعالى يأمرنا بأن نعرفه بالنظر فى آياته الكونية ، ولا يمكن إثبات رسالة الرسول إلا بعد معرفة الله الذى أرسله ، فوجب أن تكون معرفة الله أولا بالعقل ، وثبت أن من كفر به قبل البعثة يستحق العذاب ، ويقولون أيضاً إن الأحكام تعرف بالعقل لأنه يدرك حسن الأفعال وقبحها قبل ورود الشرع[2]. وقد أثبت الإمام الرازى

(١) الآلوسى ج ١٥ ، ص ٣٨ منير .

(٢) فإذا لم يرد فى الشرع كنا مكلفين ومحاسبين على الأخطاء ، والله تعالى أرسل الرسل لتأييد العقل ومساعدته فى أحكامه كذا قالوا .

الوجوب العقلي ، وفسر قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » بوجهين (أحدهما) : حمل الرسول على العقل (والثانى) : تخصيص العموم بأن يقال : المراد وما كنا معذبين فى الأعمال التى لاسبيل إلى معرفتها بغير الشرع إلا بعد مجيء الشرع ، ثم قال والذى نرتضيه ونذهب إليه أنّ مجرد العقل سبب فى أن يجب علينا فعل ما ينتفع به ، وترك ما يتضرر به ، ويمتنع أن يحكم العقل على الله تعالى بوجوب فعل أو ترك فعل ، ا هـ[1] .

وحمل الآية أبو منصور الماتُريدى وتابعوه على نفى تعذيب أهل الفترة بالاستئصال فى الدنيا ، وذهبوا إلى تعذيبهم فى الآخرة بترك الإيمان والتوحيد ، وأهل الفترة كل من كان بين رسولين ، ولم يكن الأول مرسلا إليهم ، ولم يدركوا الثانى ، واعتمد القول بتعذيب أهل الفترة الإمام النووى فى شرح مسلم ، فقال : إن من مات فى الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فى النار ، وليس فى هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الرسل عليهم السلام .

قال الآلوسى تعليقاً على رأى النووى : والظاهر أن النووى يكتفى فى وجوب الإيمان على كل أحد ، ببلوغه دعوة من قبله من الرسل وإن لم يكن مرسلا إليه .

وقال الحليمى[2] فى منهاجه : إن العاقل المميز إذا سمع أية دعوة كانت إلى الله تعالى ، فترك الاستدلال بعقله على صحتها وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضاً عن الدعوة فيكون كافراً — ويبعد أن يوجد شخص لم يبلغه خبر أحد من الرسل على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم ، والذين كفروا بهم وخالفوهم فإن الخبر يبلغ على لسان المخالف كما يبلغ على لسان الموافق ، ولو أمكن أنه لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبى ، ولا عرف أن فى العالم من يثبت إلٰهاً — ولا نرى أنّ ذلك يكون فأمره على الاختلاف فى أن الإيمان هل يجب بمجرد العقل ، أو لابد من انضمام النقل ؟ ا هـ .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧

(٢) المصدر السابق آخر ص ٣٧ وأول ص ٣٨

وعلق عليه الآلوسى بقوله : وهذا صريح فى ثبوت تكليف كل أحد بالإيمان بعد وجود دعوة أحد من الرسل عليهم السلام وإن لم يكن رسولا إليه ، وبالغ بعضهم فى اعتماد ذلك حتى قال : فمن بلغته دعوة أحدٍ من الرسل بوجه من الوجوه ، فقصر فى البحث عنها فهو كافر من أهل النار ، فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة مع إخباره صلى الله عليه وسلم بأن آباءهم الذين مضوا فى الجاهلية فى النار .

ثم قال الآلوسى[1] : والذى يميل إليه القلب أن العقل حجة قبل ورود الشرع فى معرفة الصانع تعالى ووحدته وتنزهه عن الولد للأدلة السابقة ، أما إرسال الرسل وإنزال الكتب فمن رحمته تعالى ، أو أنَّ ذلك لبيان مالا ينال بالعقول من أنواع العبادات والمعاملات والحدود ، فلا يرد أنه لو كان العقل حجة ما أرسل الله تعالى رسولا اكتفاءً بالعقل ، وقيل فى جواب هذا الإشكال : لما كان أمر البعث والجزاء بما يَشُقُّ على العقل وحده إلا بعظيم تأمل فيه حرج يعذر الإنسان بمثله ولا إيمان بدونه فلهذا بعث الله الرسل عليهم السلام لبيان ما به تتمة الدين ، لا لنفس معرفة الخالق فإنها تنال ببداهة العقول ، فالبعْرةُ تدل على البعير ، والأثر على المسير ، فسماءٌ ذات أبراج وأرض ذاتَ فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على اللطيف الخبير : ا هـ : بتصرف .

رأى الامام الغزالى

ثم حكى الآلوسى رأى الإمام الغزالى فى ذلك إذ قال[2] : الناس بعد بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ، صنف لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، فأولئك مقطوع لهم بالجنة ، وصنف بلغتهم دعوته وظهور المعجزة على يده وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق والصفات الكريمة ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا فأولئك مقطوع لهم بالنار ، وصنف بلغتهم دعوته عليه السلام وسمعوا به بطريقة مشوهة لا تظهره على ما كان عليه من الكمال فى أمره كله ، فهؤلاء أرجو لهم الجنة إن لم يؤمنوا به : ا هـ بتصرف .

وقد علق الآلوسى على هذا الرأى بقوله : ولعل القطع للأولين بالجنة ، ورجاءها للآخرين إذا كان هؤلاء وأولئك مؤمنين بالله تعالى ، أما إذا كانوا غير مؤمنين به فهم على الخلاف فى أمرهم : ا هـ بتصرف يسير .

(١) انظره فى جـ ١٥ ص ٣٩ طبع منير . (٢) المصدر السابق فى آخر ص ٣٩ — ١٢

الرأى الذى نرتضيه

تبين من هذا البحث أن أحاديث صحيحة وردت بتعذيب بعض المشركين فى الفترة بين رسولين ، وبما أنه تعالى قال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » فإننا نرى أن ما ذهب إليه الماتريدية أسلم ، لما فيه من الجمع بين الكتاب والسنة ، فبالسنة يحكم على أهل الفترة بالكفر واستحقاق عذاب النار ، لإشراكهم بالله تعالى ،وهم غير معذورين فى هذا الشرك ، فقد كان البدوى منهم يعرف أن البعرة تدل على البعير ، وآثار السير على المسير ، وأن هذه الأرض ذات الفجاج ، وهذه السماء ذات الأبراج ، براهين على وجود الخالق الكبير العليم ، وأن الشركاء التى عبدوها معه ، ليس لها شىء من الخلق والرزق ، فهم لهذا لا يعذرون وإن لم يبعث فيهم رسول ، لأن معرفة الله لا تتم إلا بالعقل قبل إرسال الرسل ، وبعدهم -كما تقدم بيانه - ويحمل نَفْىُ العذاب فى قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » على نَفْىِ عذاب الاستئصال فى الدنيا ما لم يبعث إليهم رسول فيكفروا ويصروا ، فبهذا يستحقون الاستئصال ، ومعلوم أن الماتريدية من أهل السنة كالأشاعرة - والله تعالى أعلم .

(وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾)

المفردات :

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) : أمرنا الرؤساء والمنعَّمين فيها بالطاعة ، وقيل جعلناهم أمراء [1]

(فَفَسَقُوا فِيهَا) : أى فخرجوا عن الطاعة وتمردوا فيها .

(١) قال القرطبى فى تعليله : لأن العرب تقول : أمير غير مأمور أى غير مؤمر وبالمعنى الأول قال ابن عباس وعليه الأكثرون .

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) : أى فوجب عليها القول ، أى فوجب عليها الوعيد بالعذاب .
(فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) : التدمير : الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء .
(وَكَمْ أَهْلَكْنَا) : كم خبرية للتكثير أى وكثيرا أهلكنا .
(مِنَ الْقُرُونِ) : جمع قرن وهو من الزمان مائة سنة ، والمراد من القرون أهلها .

التفسير

١٦ - (وَإِذَآ أَرَدْنَـآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) :

بينت الآية السابقة أن عاقبة الهدى لا تعود إلا على المهتدى ، وعاقبة الضلال لا تتعدى صاحب الضلال ، فلا تحمل نفس وزر نفس أخرى كما لا تثاب نفس فاسقة بطاعة نفس أخرى وأنه تعالى لا يعذب أمةً حتى يبعث إليها رسولا ينصحها ويرشدها فتستمر على ضلالها . وجاءت هذه الآية لتؤكد سابقتها ، ببيان أن الله تعالى جرت سنته أن لا يهلك قرية بعد بعث الرسول إليها ، حتى يأمر رؤساءها بطاعته ليستقيم أمر العامة فيها ، فإذا لم تستجب دمرها تدميرا .

والمعنى : إذا شئنا إهلاك قرية أعرضت عن رسولها ، فإننا لا نكتفى بما علمناه أزلا من انطماس بصيرة أهلها وجحودهم ، ولا بمقابلة رسولهم بالتكذيب والكفر ، بل نخص المترفين فيها بتكرار أمرهم بطاعة ربهم ، لأنهم أئمة الضلال وسبب فساد العامة ، ولكى تسقط حجتهم يوم حساب ربهم ، فاستمر فسقهم فيها ومن ورائهم عامتهم ، فحق عليها وعيد ربهم بعذاب الاستئصال الدنيوى ، فدمرها الله تدميرا هائلا ، حيث أهلك أولئك الفاسقين المتمردين واستأصلهم بما شاءه الله من أسباب الاستئصال ، فصارت قريتهم بعدهم خراباً ، وانطمست معالمها .

رأى الزمخشرى

يرى الزمخشرى أن الآية فيها استعارة تمثيلية ، وخلاصة المعنى عليها : وإذا أردنا أن نهلك قرية كفر أهلها وعصوا وأصروا على ذلك ، أمددناهم بالنعم وأترفناهم فى الحياة ،

استدراجاً لهم ، فكان هذا الاستدراج بالنعمة كأنه أمر لهم بالفسق ، ففسقوا فيها فحق الوعيد بتعذيبهم فدمرناها تدميرا .

والمعنى الأول ، أوضح وأظهر ، وأساسه ما نقل عن ابن عباس ترجمان القرآن من أن المراد بأمر مترفيها أمرهم بالطاعة ، ولذا قال تعالى فى مقابله : « فَفَسَقُوا فِيهَا » أى قابلوا الأمر بالطاعة بالفسق .

١٧ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا) : والقرن زمان طويل ، وأشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة ، وقد جاء فى حديث أنه صلى الله عليه وسلم (دعا لرجل فقال : « عِشْ قَرْناً » فعاش مائة سنة) ويجمع القرن على قرون والمراد منها أهلها لاقترانهم فى زمان واحد .

والمعنى : وكثيرا ما أهلكنا من الأمم المقترنة ، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن جاءوا بعد قوم نوح واستأصلناهم كما استأصلنا قوم نوح ، وقد قصصنا عليك يامحمد أخبار بعضهم ، ولم نقصص أخبارغيرهم وكان إهلاكهم لكفرهم وتكذيبهم لرسلهم ، وكفى بربك بذنوب عباده الخفية والظاهرة خبيرًا بصيرًا ،أى عالما بدقائقها محيطاً بتفاصيلها فيعاقبهم عليها ، فلا تبتئس يا محمد بما صنع قومك معك ، فسوف نعاقبهم كما عاقبنا من قبلهم إن أصروا على كفرهم ، وإنما قال من بعد نوح ولم يقل من بعد آدم ، لأن نوحاً أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم الله بعذاب الطوفان ، ولظهور حال قومه لم يذكروا ضمن الأمم المهلكة ، على أن ذكره رمز إليهم وإلى ماحدث لهم وقدم «خبيرًا» على « بصيرًا » لتقدم متعلقه من الاعتقاد والنيّات تقدماً وجودياً ورتبياً ، فإنها مبادئ الأعمال الظاهرة قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بالنيات » الحديث .

(مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(العَاجِلَةَ) : أى الدار العاجلة ، والمراد بها الدنيا . (يَصْلَاهَا) : يدخلها ويقاسى حرها . (مَدْحُورًا) : مطرودا مبعدا من رحمة الله . (كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) : كان عملهم للآخرة مقبولا من الله مجزياً منه بحسن الثواب ، وأصل معنى السعى : المشى السريع – وهو دون العَدْو – ويستعمل فى الجدّ فى الأمر خيرًا كان أو شرًّا ، وأكثر ما يستعمل فى الأفعال المحمودة – كما قال الراغب – (مَحْظُورًا) : ممنوعاً .

التفسير

١٨ – (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ) :

بين الله قبل هذه الآية أنه تعالى لايهلك أمة عاصية إلا بعد أن يبعث إليها رسولا يأمر مترفيها أن يتركوا ماهم عليه من الكفر والمعاصى حتى تستقيم عامتهم ، وأنهم إذا أصروا على فسقهم دمرهم واستأصلهم ، وأنه قد أجرى هذه السنة فى كثير من القرى والأمم من بعد نوح ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لتبين سنة أخرى لله تعالى فى جزاء الناس على أعمالهم ، فمن قصدبعمله دنياه وحدها ، أعطاه منها ما تعلقت به مشيئته ، ولكنه معاقب فى الآخرة ، ومن قصد بعمله أخراه وكان مؤمنا أثيب أحسن الثواب فى أخراه .

والمعنى : من كان يقصد بعمله منافع هذه الدار العاجلة ، من الاستمتاع بما فيها من المتع واللذائذ والذكر الحسن بين الناس دون أن تخطر الآخرة بباله ، أو يبتغى بعمله وجه ربه - كما هو شأن الكافر والمنافق - فإن الله تعالى يعجل له فى هذه الدار ما شاء تعجيله له من نعيمها ومنافعها ، لا كل مايريده العامل للدنيا .

وليس بضرورى أن يجيبه فيها إلى شىء من مآربه ، فإنه لايعطى إلا من أراد إعطاءه فإن أعطاه فعلى سبيل الاستدراج والكيد بسبب إصراره على الكفر ، وليس على سبيل الجدارة والاستحقاق - كما قال تعالى : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ».وقد بين الله عاقبة هذا الصنف من الناس بقوله :

(ثُمَّ جعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً) :

أى ثم جعلنا له جزاء على إهداره أخراه وإيثاره دنياه ، جعلنا له جهنم يدخلها ويقاسى حرها ، ولا يقتصر أمره على ذلك ، بل يضاف إليه الذم والإهانة والطرد من رحمة الله تعالى ، فلهذا قال : « يصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً » فما أسوأه من مصير ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى فى سورة الشورى : « وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ » .

١٩ - (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً) :

أى ومن قصد بعمله الدار الآخرة وحسن الجزاء فيها ، وجَدَّ فى عملها اللائق بها وهو مصدق بربه ونبيه تصديقاً واثقاً لاتشوبه شائبة موهنة ، فأولئك المصدقون المريدون الآخرة العاملون من أجلها كان سعيهم المتواصل مقبولا عند الله مثابا عليه أضعافاً مضاعفة ، كما قال تعالى فى سورة الشورى : [1] « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ » .

٢٠ - (كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) :

أى كلا ممن يسعى للعاجلة ومن يسعى للآخرة نمده ونزيده مرة بعد أخرى ، بحيث يكون اللاحق مددا للسابق - نمدُّ هؤلاء وهؤلاء - من عطاء ربك ونعمته ، فصاحب العاجلة يمده الله حسب مشيئته تعالى بالنعم الدنيوية التى سعى إليها وآثرها على الآخرة ، ولم يعطها حقها من

(١) أول الآية (١٠) منها .

الشكران والطاعة والإيمان ، وصاحب الآخرة يمده ربه بما يعينه على طاعته وشكره ، ويستتبع حسن مثوبته ، وما كان عطاء ربك أيها المكلف ممنوعاً عمن يريده ، بل هو فائض على مايشاؤه الله بموجب حكمته ، ولا يمنع بره عن عباده كفر ولا عصيان ، وسيُجزى كلٌّ فى أُخراه على ما قدمت يداه .

(ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(فَتَقْعُدَ) : القعود هنا بمعنى الإقامة أو المكث ، سواءٌ أكان فى مكثه قاعدا أم قائما وقيل القعود بمعنى الصَّيرورة ، من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أى حتى صارت كأنها حربة ، وقيل غير ذلك . (مَّخْذُولاً) : أى عديم النصير .

التفسير

٢١ - (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) :

الخطاب فى هذه الآية لكل مكلف ،فالله تعالى يدعوه فيها إلى التأمل فى فضله وتمييزه بعض الناس على بعض فى الرزق والنعمة فى الحياة الدنيا - دون نظر إلى عمل ، ويبين أن التفاوت فى الآخرة بين عباده سيكون أعظم ، تبعاً لتفاوتهم فى الدنيا فى العمل .

والمعنى : انظر أيها المكلف وفكر فى تفضيل الله بعض الناس على بعض فى الرزق فى هذه الحياة الدنيا من غير نظر إلى إيمانهم وكفرهم ، فقد يكون الكافر أوسع نعمة وأعظم

جاها من المؤمن فى الدنيا ، وقد يكون العكس ، لأن العطاء فى الدنيا لا ينظر فيه إلى العمل غالباً ، بل هو كرم غير مشروط ، وتذكير وامتحان يستتبع الجزاء .

وهذا التفاوت الذى تراه فى الدنيا لا قيمة له بجانب التفاوت الذى سوف يكون فى الآخرة ، فإن التفاوت فيها سيكون أعظم ، ودرجات التفضيل ستكون أكبر ، تبعاً لتفاوتهم إيماناً وكفرا ، وطاعة وعصياناً ، فبعضهم فى أعلى عليين وبعضهم فى أسفل سافلين ، وغيرهم من سائر الخلق متفاوتون فى الدرجات أو الدركات ، وقد جاء فى تفاضل أهل الجنة فى الدرجات عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أهلَ الجنة لَيَتَرَاءَوْن أهل الغرف من فوقهم ، كما يتراءون الكوكب الدرى العابر من الأُفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا يارسول الله : تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم؟ قال : بلى . والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلينَ » أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

وقد صح أنه تعالى أعد لعباده الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وروى ابن عبد البر فى (الاستيعاب) عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشى ، وكان أحد الأشراف فى الجاهلية ، وأبوسفيان بن حرب وأولئك المشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر – وكان يحبهم – فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل – وكان أعقلهم – : أيها القوم . . إنى والله قد أرى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتُم ، أمَا والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتا من بابكم هذا الذى تنافسون عليه ... انتهى بتصرف يسير . . وفى الكشاف أنه قال : إنما أُتينَا من قِبَلِ أنفسنا ، إنهم دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأْنا ، وهذا باب عمر . . فكيف التفاوت فى الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم علىّ باب عمر ، لَمَا أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

٢٢ - (لَاتَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً) :

أى لاتجعل أيها المكلف مع الله إلٰها آخر تشركه معه فى الألوهية - وتتجه إليه معه بالطاعة والعبودية ،فيترتب على هذا الإشراك أنك تمكث فى جهنم جامعا على نفسك الخذلان من الله حيث يدخلك جهنم ، ومن الآلهة الشركاء حيث لاقدرة لها على أن تخلصك من عقاب ربك . ويترتب عليه أيضاً الذم من الله والملائكة والمؤمنين من عباده لأنك اتخذت إلهاً فقيرًا مثل فقرك ، عاجزا مثل عجزك ، لايملك لنفسه نفعاً ولاضررًا ، كما لاتملك لنفسك ، ونسبت إليه ما لايصلح ، وجعلته شريكاً لمن لا شريك له ، وهو الذى خلقك ورباك ، وبرزقه كفاك ، نعوذ بالله من الشرك خفيه وظاهره ، ونسأله العافية وحسن الختام .

* (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(وَقَضَى) : وأمر أمرا قاطعاً .. (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا) : أى إن وصلا أو أحدهما إلى الشيخوخة والكبر فى كنفك وكفالتك. (أُفٍّ) : اسم صوت يدل على الضجر. (وَلَا تَنْهَرْهُمَا) : أى ولا تنههما عمالا يعجبك بغلظة. (قَوْلاً كَرِيمًا) : أى قولاً ليناً جميلا يقتضيه حسن الأدب. (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) : أى ألِنْ جانبك شفقة عليهما

وتواضعاً وتذللا لهما ، كالطائر يخفض جناحه شفقة على أولاده .

(الأَوَّابِينَ) : الرَّجاعين التائبين .

التفسير

٢٣ - (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ) :

بعد أن نهى الله كل مكلف عن أن يجعل مع الله إلٰها آخر ، لأنه لا رب سواه أتبع ذلك بيان أن الله قضى أمرا قاطعاً ألا يعبدوا إلا الله ، وأن يُحسنُوا إلى والديهم . .

والمعنى : أمر ربك يا محمد أن يوحده عباده بالطاعة ولا يشركوا به أحداً فهو ربهم وخالقهم ومدبر أمرهم ، وصاحب الآلاء والنعم التي ينعمون بها ، يدركون بعضها ويخفى على كثير منهم معظمها ، ويعييهم ويعجزهم عدها وحصرها ، ونواصيهم بيده . « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ » فمِن خطل الرأى - إذن - وسوء التقدير أن يشركوا معه إلٰها آخر ، لايضر ولا ينفع ، ولا يملك من أمر نفسه موتاً ولا حياةً ولا نشورًا .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) : وكما حكم وألزم الأولاد أن يحسنوا إلى والديهم بالقول الطيب والرعاية التامة والقيام بشأنهما ، فهما أحق الناس بحسن الصحبة ،ورضا الله فى رضاهما وسخطه فى سخطهما .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) : أى إذا تقدمت بهما أو بأحدهما السِّن وانتهيا إلى ضعف بعد قوة ، ومرض بعد صحة ولم يستطيعا القيام على أمرهما ، وتدبير شأنهما لما أصابهما فى الكبر من وهن الجسم وإلحاح العلَّة وضعف التفكير ، وتلك الحال مظنَّة أن يصدر منهما ما يغضب أو يثقل على النفوس ، أو يعوق عن سعى فى الدنيا أو يكثر النفقة ويرهق الأُسرة ويشق عليها - إن حدث ذلك - فلا تقل لوالديك الكبيرين أو لأحدهما ما يدل على ضجرك ، أو يسىء إليهما ، من قول بعيد عن حسن الأدب ، أو فعل لا يليق من الولد لأبيه ، فقد غذاه مولودًا ، وعاله يافعًا ، وسهر ليله لسقم أصابه ، أو مرض ألمَّ به ، أيكون جزاءُ هذا الأب الحانى غلظة القول وجفاء الخلق؟ أو يكون جزاءُ الأُم الرؤوم أن تقابل بما يكسر قلبها ، ويثير ألمها وينال من كرامتها ، وهى التى كان بطنها له وعاء ، وثديها

سقاءً ، وحِجْرها مهادًا ووطاءً ، تؤثره على نفسها ، وتَفْدِيه بروحها ، هذا فضلًا عن أن الجنة تحت أقدامها ، قَبِرُّها خير وبركة ، وغنى وسعادة ، وبالجملة فبر الوالدين ينبغى أن يكون فى أجمل وأبهى حلله فإنه بعض الوفاء لِفضلهما « هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسانُ » وإن من سوء الطالع أن يعق الولد أبويه ، فيقابل الحسنة بالسيئة ، والنعم والفضل بالجحود والكفران ، والعناية بالترك والإهمال ، إن فى هذا لَبَوَارًا وخسرانًا فى الدنيا ، وغضبًا من الله وحرمانًا من رضوانه فى الآخرة .

٢٤ ـ (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) :

أى إن حق الوالدين لا يقف عند إخفاء الضجر والبعد عن الانتهار والزجر ، ولا عند الإحسان بالقول الطيب واللفظ اللَّين كما جاءت به الآية السابقة ، بل إن وراء ذلك ما جاءت به هذه الآية من أن تبسط لهما من نفسك ، وتخفض جناح الذل منك كما يخفض ويبسط الطائر جناحه على فراخه رعاية وشفقة وحنانًا ، بحيث لا يشوب هذا الخفض تكلف ولا تصنع ولا رياءٌ ؛ ولا تخالطه رائحة استعلاءٍ أو يشم منه أثر كبر أو مَنٍّ ، بل يكون ذلك عن رحمة لمن أسدى إليك معروفًا وقدم إليك برًّا ورعاية ، وقد أتاح الله لك فرصة فاغتنمها بأداء بعض ما عليك لهما ، والوفاء بما لديك من دَيْنهما ، فهما مفتقران إلى من يأخذ بأيديهما ويعطف عليهما ويقوم على برهما فى كبرهما ، وأنت أولى الناس بهما ، ثم لا يقف بك الأمر عند هذا بل توجه إلى الله بقلب ضارع تَقِيٍّ أن يرحمهما برحمته الواسعة فى الدنيا والآخرة ، فتكون بذلك نعم الولد الذى يدعو لوالديه فيصلهما بره حتى بعد وفاتهما ولا ينقطع عملهما وأنت تدعو لهما ، وهذا الدعاءُ جزاءُ تربيتهما لك ، ورحمتهما بك ، فقل : رب ارحمهما كما ربَّيانى صغيرًا ، فتكون نعم المجازى والمكافئُ . . وفى أمر الله الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة مع قيامه ببرهما والإحسان إليهما ، ما يشير إلى أن الولد مهما بذل وأعطى وأحسن إلى والديه فلا يستطيع أن يوفيهما حقهما ، وأنه لا يفى بذلك الحق سوى الله تعالى ، فلذلك يدعوه سبحانه ليجبر عنه النقص فى برهما . . هذا وإنَّ برَّ الوالدين لا يتوقف على كونهما مسلمين أو طائِعَيْن . . بل يشملهما ولو كانا فاسقين أو كافرين ولكنه لا يطيعهما فى كفر أو فسق ، قال تعالى : « وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُما فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » وله أن يدعو لأبويه الفاسقين بالغفران والرحمة بعد موتهما ، طمعًا فى فضل الله ، ولكن ليس له أن يدعو لهما بذلك إن كانا كافرين ، لقوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوآ أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

وعليه أن ينصح والديه الفاسقين أو الكافرين فى رفق ولين ، فإن وفقه الله تعالى فمن فضله عليه وعليهما ، وإلا فقد أعذر لربه كما أعذر له إبراهيم عليه السلام فى نصح أبيه آزر : « يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُد الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا » الآيات من سورة مريم .

هذا وإنَّ بر الوالدين لا ينقطع بموتهما ، بل جعله الله موصولًا بعد وفاتهما إكرامًا لحقهما وتوكيدًا لمكانتهما .

فعن أبي أُسَيْدٍ وهو مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : « بينَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْد رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم . إذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلمَة فقال : يَا رَسُول الله هَلْ بقِيَ مِنْ بر أَبَوَيَّ شيءٌ أَبرُّهُمَا بِهِ بعْد مَوْتِهِمَا ؟ فقال : نعم الصلاة عليهما ، والاسْتِغْفَارُ لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما »[1] .

٢٥ ــ (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) :

أى إن الله الذى خلقكم ورباكم بنعمه وفضله أعظم علمًا بما انطوت عليه صدوركم وما انعقدت عليه قلوبكم : « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » فإن كنتم من الذين مَنَّ الله عليهم بالتقوى وجعلهم فى زمرة الصالحين ورجعتم إليه تائبين ،فإنه سبحانه يتفضل عليكم بالتجاوز عما وقع منكم ، من تقصير بَدَرَ منكم بمقتضى الجِبِلة البشرية التى هى مظنة الجهالة ، فإنه كان ولا يزال غفورًا للتوابين ، وفى هذه الآية وعد صريح وبشارة واضحة للمُطيع البار ، وإنذار ضمنى للعاصى المعاند ، فالله سبحانه يحاسب كلًّا على عمله ونيته « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى » .

---

(١) رواه أبو داود .

(وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) : وأعط صاحب القرابة حقه من البر والصدقة .

(وابْنَ السَّبِيلِ) : المسافر فى غير معصية الذى لا مال معه .

(وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) : التبذير إتلاف المال فى المعاصى أو الترف .

(إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) : أى أصحابهم المطيعين لهم . (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ) : أى وإن أعرضت عن إعطاء أصحاب القرابة والمسكين وابن السبيل لعدم وجود ما تعطيهم إياه من البر. (فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) : فقل لهم قولًا سهلًا ، بوعدهم بالعطاء عند اليسر أو الاعتذار لهم. (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) : أى ولا تبخل بخلًا شديدًا ، كأنَّ يدك مغلولة إلى عنقك. (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) : بالتبذير المنهى عنه. (مَحْسُورًا) : مغمومًا نادمًا على إسرافك. (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه .

(وَيَقْدِرُ) : يضيق الرزق حسب مشيئته تعالى وحكمته .

التفسير

٢٦ - (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) :

بعد أن أمرالله المسلم بأداء حقوق الوالدين أمر - سبحانه - برعاية الأقرباء وذوى الأرحام بالنفقة الواجبة والعطاء والصلة ، فإن ذلك يديم الود ويبقى على التراحم ، كما أمره أن يشمل بره وفضله إخوته فى الإسلام والإنسانية ، فيحنو على مسكينهم يخفف عنه شدة الحياة ولأواءها ، يمنحه مما أفاء الله عليه ما يقيم به أوده ويسد خلته ، ويبقى على إنسانيته غير ذليلة ولا مهينة ، كما يمتد عطاؤه إلى ذلك الإنسان الذى انقطعت به سبيل الحياة ، ونأى عن أهله وماله ، وأصبح غير معروف لأحد بنسب أو قرابة سوى أنه ابن للطريق الذى يسير فيه ، يعطى هذا الْمُنْبتَّ ما يبلغه أهله ووطنه رحمة به وتوطيدًا للأخوة ، وبذلًا للمعروف واستجابة لداعى المروءة ، بهذا قد حدد الله لنا مجال البر وإطار الخير ،فلا خروج عنه إلا إلى مباح فى اعتدال ، إذ لو جنح صاحب المال عما أمر الله وأحل ، فإنه يكون مبذرًا ، ويصير من إخوان الشياطين ، كما قال الله تعالى :

٢٧ - (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) :

يعنى أن المبذرين الذين يصرفون أموالهم فى المعاصى ، والترف الواسع ، يشبهون الشياطين ويماثلونهم ويتأسون بهم فى كفران النعمة لصرفها فيما حرم الله ، أو يتلفونها فى ترفهم وينسون المبرات ، فإذا ساروا على طريقتهم هذه ولم يرجعوا إلى ما شرعه الله ، حشروا فى النار مع قرنائهم وأمثالهم من الشياطين الذين يسيرون وفق إغوائهم ، ويسلكون سبيلهم ، والجزاء من جنس العمل .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) : أى أن الشيطان دأب على كفران النعم ، حيث إنه يصرف القدرة التى منحها الله له إلى المعاصى والإفساد فى الأرض وإضلال الناس ، وكان حقها أن تصرف فيما خلقت له ، فى عبادة ربه وطاعة مولاه « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » فاحذروا أن تتشبهوا بالشياطين فى الجحود والكفران ، حتى لا تكون عاقبتكم البوار والخسران كعاقبتهم .

٢٨ - (وَإِمَّا[1] تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) :

أى وإن أعرضت وملت عن هؤلاء الأقارب والمساكين وأبناء السبيل فلم تحقق لهم

(١) إما مركبة من إن الشرطية وحرف ما . والغرض من وصل (ما) بإن الشرطية هو تقرير الشرط وتقويته .

ما يطلبون أو لم تمنحهم ما يؤملون ، وذلك لعسر أصابك ، أو فقر نزل بك ، وأنت تتطلع وترجو من ربك أن ييسِّر لك ويفرج كربك ، واثقًا بفضله طامعا فى رحمته - إن أعرضت عن هؤلاء لذلك فاعتذر لهم بالقول الطيب والكلام اللين والدعاء ، مع الوعد الجميل ببرهم ، عندما يزول عذرك ، لتسر نفوسهم وتفتح باب الرجاء أمامهم ، وهذا تأديب وتوجيه يبقى المودة ويديم الألفة بين المؤمنين ولله در هذا الشاعر حيث يقول :

إلاَّ تَكُنْ ورِق[1] أجود بها للسائلين فإنى لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسن مردودى

٢٩ - (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) :

أمرنا الله فيما تقدم بالإنفاق فى البر ، وجاءت هذه الآية ليعلمنا الله أدب إنفاق المال ، فنهانا - سبحانه - عن البخل والشح وعن الانطلاق فى البذل .

والمعنى : ولا تجعل يدك - كالمغلولة الممنوعة بالغُلّ عن الانبساط فى الإنفاق ، بل تَعَوَّدْ بسط اليد والسخاء والجود حتى لا يلومك ويعتب عليك أهلك ، ويذمك من يعرفك من أصحابك وعشيرتك ، ويَمَلُّكَ أهلك وولدك ويتمنوا هَلاكَكَ ، ولا تسرف فى الإنفاق وتتجاوز الحد ، فتكون كمن بسط يده ونشرها فضاع ما كان فيها من مال ، بل تدبر أمر مستقبلك أنت ومن تعول حتى لا تضيعهم فترجع ملوما من الله تعالى ومن الناس ومن نفسك إذا احتجت كما تصير بهذا الإسراف كليلا منقطعا ، كالذى بلغ الغاية فى التعب والإعياء ، فلم يستطع مواصلة سيره ، فعليك أن تكون وسطا بين الإفراط والتفريط ، متصفا بصفات عباد الرحمن الذين قال الله فيهم : « الَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا » ويلاحظ أن الإسراف قد يؤدى إلى الإثم إن أضاع العيال ، قال صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ » .

٣٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) :

أى إنَّ بسط الرزق وتوسعته وقبضه ليس لك ولا هو من شأنك أيها المربوب الضعيف الذى لا تعلم أمر نفسك وما يصلحها ، ولا تقدر على تدبير شأنك من غير معونة ربك ، فهو الذى

(٢) الورق . . . بكسر الراء - الدراهم المضروبة .

يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه ، وأنت مأمور منه سبحانه أن تكون معتدلًا فى الإنفاق فى حالتى الفقر والغنى ، وأن تسعى فى سبيل رزقك ، والله يعينك فى سعيك إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ، يعطى عباده حيثما جرت به مشيئته وحكمته فمن حكمته تعالى - أن يغاير بين الناس فى الفقر والغنى ، ليستقيم أمر الحياة وينتظم شأنها ، فطائفة تيسر لعمل ،وثانية تسخر فى آخر ، وهكذا ييسر الله كلا لما خلق له فتسير الحياة ويستقيم أمر الخلق ، ولوجعل الله الناس على حال واحدة لاختل النظام وفسد وانتهى أمر الخلق إلى فوضى ، وتعطلت جوانب كثيرة من حياة الناس ، وصدق الله حيث يقول : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »[1] .

(وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) :خوف فقروفاقة . (خِطْئًا كَبِيرًا) : ذنبا عظيما وخطيئة كبيرة ، والخِطْءُ بكسر الخاء تعمد الذنب ، قال الأزهرى : خطِئ يخطأُ خِطْئًا - بوزن علم يعلم علما -

(١) سورة الزخرف : من الآية (٣٢)

إذا تعمد الخطأ ، مثل أَثِمَ يأْثَمُ إِثْما ، وأخطأ إذا لم يتعمد ، إخطاء وخَطَأً .

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ) : ولا تدخلوا فى شىء من مقدمات الزنى ، فضلا عن مباشرته . (فَاحِشَةً) : فعلة سيئة ظاهرة القبح. (لِوَلِيِّه) : لوارثه الذى له المطالبة بدمه فإن لم يكن له ولى فالسلطان وليه ، (سُلْطَانًا) : تسلطا واستعلاء على القاتل ومؤاخذته بالقصاص أو الدية. (فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ) : بأن لا يقتل غير القاتل ولا يمثل بالمقتص منه. (يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) : يصل إلى حد الرجال ، ويبلغ وقت اشتداد قوته فى البدن والعقل وتدبير المال وصلاح الحال .

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ) : اجعلوه وافيا كاملا مضبوطا بلا خديعة .

(بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : بالميزان العادل .

(وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) : وأحسن مآلا وعاقبة فى الدنيا والآخرة .

التفسير

٣١ -(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) :

بعد أن بين الله - سبحانه - فى الآية السابقة أن أمر الرزق بيده توسيعا وتضييقا نهى عباده فى هذه الآية عن قتل الأولاد مشفقين من فقر ينالهم .

والمعنى : ولا تقتلوا أولادكم خوفا من فقر ينالكم بسبب قيامكم بالإنفاق عليهم ، لأن قتلهم كان فى شرع الله منذ القدم إثما عظيما ، لا يقع إلا ممن لا يؤمن بربه ولا يتوكل عليه ، فنفسه خواء وقلبه فارغ ليس به أثر إيمان ولا بقية يقين ، إن هذا العمل الشائن الفاجر ذنب كبير ناشىء عن تزيين الشركاء من الجن أو سدنة الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله ليوقعوا الآباء فى مهاوى الضلال والفساد والهلكة قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ » .(١)

فلو تركتم - أيها المشركون - عبادة غير الله وآمنتم بربكم حق الإيمان لعلمتم أنه - سبحانه - قد تكفل بأرزاق خلقه جميعا : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » .(٢)

---

(١) سورة الأنعام : من الآية رقم ١٣٧ .

(٢) سورة هود ، : من الآية ٦ .

وليس عليكم إلا أن تتخذوا للرزق أسبابه التى يسرها الخالق ـ سبحانه ،واعلموا أن أولادكم الذين تتوهمون أنهم مُنْتَقِصون من أرزاقكم إنما يرزقهم الله معكم لا تبعًا لكم ، فمن الهمة القاصرة والعزيمة الخـائرة أن يستبد بكم هـذا الوهم ، فتقدموا على فعلتكم الشنعاء هذه .

وفى هذه الآية قدم ضمير الأولاد فى منح الرزق على ضمير المخاطبين إذ قال : نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » ليبين للآباء أن رزق الأولاد محل عناية واهتمام من الله تعالى فليس هناك داع ـ إذًا ـ للإشفاق والخوف من وقوع الفقر ،وقدم ضمير الآباء فىسورة الأنعام فى قوله تعالى : «نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» للمبادرة بطمأنة الآباء على أرزاقهم وأنها واصلة إليهم لامحالة فلا موجب لقتلهم أولادهم ـ وفى التعبير بلفظ كان فى قوله تعالى : «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » إيذان بأن هذا الفعل الأثيم كانت تأباه كل الفطر السليمة وترفضه الطبائع الكريمة وجميع شرائع الله تبارك وتعالى التى أنزلها على أنبيائه من قبل . فهى شريعة موروثة ، فكيف ساغ لهم الإقدام على قتلهم .

٣٢ـ (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا) :

وبعد أن نهى ـ سبحانه ـ فيما سبق عن قتل الآباء أولادهم ، وبين أن قتلهم هو جرم فاحش وذنب كبير ، حذر فى هذه الآية من الدنو من الزنى ، وبين أنه كان فى عرف الناس وشريعة الله فعلة ظاهرة الفحش ، وساء طريقا فى الحياة ، والتحذير من القرب من الزنى تحذير من مباشرة دواعيه وأسبابه ، ولهذا أمر كلا من المؤمنين والمؤمنات بغض البصر فالنظرة الآثمة سهم من سهام إبليس وهى بداية كل شر ،كما نهى ومنع خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، لأن الشيطان يجيد السفارة فيها ، فيوسوس لكل منهما ، ويزين الشر ويأمر بالفحشاء ، وفى الأثر : «ماخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »كما نهى سبحانه أن تبدى المرأة زينتها لرجل لايحل له ذلك منها ، فإن فعل ذلك يحرك الرغبة الآثمة بينهما ويدعو إلى الفجور .

ومما يؤدى إلى الفاحشة أن تلين المرأة وتخضع فى كلامها ، فيطمع فيها من فى قلبه مرض الفحش وداءُ الرغبة الآثمة فى الفساد ،هذا هو تحذير الله عباده من أن يقربوا الزنى فما بالهم إذا قارفوه وفعلوه ووقعوا فيه ، إنه سبب فى اختلاط الأنساب وهتك الأعراض وتفكك المجتمع ، وشيوع الرذائل ، وذهاب الإنسانية الفاضلة والنزول بها إلى درك الحيوانية ، فضلا عن أن من يمارس ذلك يذهب بهاؤه وتهون منزلته ،ويفضح فى أهله ، فالزنى عمل بالغ الفحش ، سيء المغبة ، وخيم العاقبة ، وساء طريقا ، فهو يورد صاحبه موارد الهلاك ، وينزل به إلى منازل السفلة ، الذين ينأى عن صحبتهم كل طاهر كريم عفيف .

٣٣ـ (وَلَاتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . الخ) الآية .

أى ولا تعتدوا بالقتل على النفس الإنسانية التى حرم الله قتلها وجعلها مصونة لايجوز الاعتداءُ عليها ، مالم ترتكب جرما يقتضى قتلها ، كما إذا ارتد مسلم أو قتل مؤمنا عمداً أو ثبت زناه بعد إحصان ، فقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لايحل دم امرىءٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فإذا اعتدى إنسان على آخر بالقتل دون ذنب أو جريرة تُحِل ذلك القتل ،فقد جعل الله لقريب ذلك المقتول ووليه حق المطالبة بدمه ،فإن شاء هذا الولى القصاص فهو حقه وإن شاء أخـذ الدية فذلك له أيضا ، وإن شاء عفا ، والسلطان ولى من لا ولى له ، وبما أن الله ـ جل جلاله ـ قد أعطى الولى الوارث للقتيل هذا الحق فالواجب عليه ـ عند استيفاء القصاص ـ ألا يسرف فلا يقتل غير القاتل ولايندفع إلى الأخذ بالثأر على غير بينة .

أو إثبات ، وليس جعل الحقوق المذكورة لولى الدم مقتضيا أن يباشرها بنفسه ،بل عليه أن يرفع الأمر إلى القضاء ليصدر حكمه فيها بما تقتضيه القواعد الشرعية ،فإن قضى بالقصاص أمر من يباشره حتى لايندفع الناس إلى القتل جزافا وَلِأَوْهَى الأسباب ، وإنما حرم الله ذلك الإسراف لأن الله قد نصر ذلك الولى وأيده ، حين شرع القصاص وأعطاه حق المطالبة به فما وراء ذلك فهو عدوان وجور .

٣٤ - (وَلَاتَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ):

وكما نهاكم الله تعالى عن أن يقتل أحدكم غيره إلا بحق فقد نهاكم أيضا عما يشبه القتل وهو أكل مال اليتيم بغير حق ، فلا تقربوا ماله بسوء فتجمعوا عليه بين فقد الوالد وحنان المربى ، وبين ضياع المال الذى يقوم عليه أمره ويصلح به شأنه ، إن هذا الاعتداء لؤم وخسة وقسوة على إنسان ليس لديه قدرة على الدفاع عن نفسه ، إن الرحمة والمروءة تقتضيكم أن تقربوا ماله بما يحفظ أصله ، وينمى فرعه ، بهذا تكونون قد قمتم على أمر هذا المال بأحسن الطرق ، وأفضل الوسائل التى تعود على صاحبها بالنفع والخير ، وداوموا على إصلاح ذلك المال حتى يبلغ اليتيم أشده ، بوصوله إلى سن الرشد ، ونمو عوده وقوة جسمه ، وزيادة خبرته ومعرفته ، ونمو تجربته وقدرته على التصرف الحسن والسلوك القويم ، فإذا بلغ راشدا فعليكم أن تدفعوا إليه ماله غير منقوص ، ولا تمسوا ماله بسوء بعد ذلك .

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً): وكونوا أوفياء بكل ما عاهدتم الله على القيام به ، من تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وفى جملة ذلك رعاية اليتامى وما عاهدتم الناس عليه مما يصح فيه العهد شرعا ، فلا تخيبوا رجاءهم ، ولاتقطعوا آمالهم التى عقدوها عليكم فى إصلاح أمرهم ، إن العهد سيسألكم عنه ربكم يوم القيامة ، فأوفوا به ولا تضيعوه .

وأظهر العهد إذ قال : «إِنَّ الْعَهْدَ» ولم يقل إنه - لكمال العناية بشأنه والحث على الوفاء به ، وإنما عبر بقوله : «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً» مع أن السؤال لصاحب العهد على سبيل المجاز ، والمراد أنه مسئول عنه يوم القيامة . فيقال لصاحبه : لِمَ نكثتَ عهدك وضيعته ولم توف به ؟ فيجمع الله عليه التبكيت مع العقوبة على عدم الوفاء به .

٣٥ - (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ):

واجعلوا الكيل وافيا عادلا ، لانقص فيه إذا كلتم لغيركم ، واكتفى بالأمر بإيفاء الكيل عند البيع عن الأمر بتعديله عند الشراء من الناس ، لأنه يؤذن بحرص الشارع على وصول الحق إلى صاحبه ، فكما لايبخسه حقه عندما يبيع له ، كذلك لا يظلمه عندما يشترى منه ، وقد جاء النهى صريحا عن التطفيف فى الجانبين فى قوله تعالى : «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى وَزِنُوا بالميزان السوى الذى لا خداع فيه ، ولا غش ولا تدليس، إذا وزنتم فإنه لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه .

(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) : أى ذلك المذكور من إيفاء الكيل عند البيع ، والوزن بالميزان السوى المستقيم، خير لصاحبه ولمن يعامله ، وأحسن مآلا ومرجعا عند الله تبارك وتعالى ، أما الكسب الحرام فهو كالوقود الفاسد لايُيسِّر الآلة . . بل يتلفها ويفسدها وربما يؤدى إلى احتراقها وقد تهلك صاحبها ، ولكن الكسب الحلال الطيب يبارك الله فيه ، فينمو ويزيد ويكون خيرا وبركة على صاحبه وأهله وولده ، إذ يبعث على الطاعة ويقوى على الخير ، ويقرب من الله ويدنى من الناس ، ويكون لصاحبه لسان صدق بينهم .

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(وَلَا تَقْفُ) : . . ولا تتبع ، مأخوذ من قولهم قفوت فلانا إذا تتبعت أثره .

(مَرَحًا) : اختيالا . . . واستكبارا ، وفخرا ، والمرح شدة الفرح .

(الحِكْمَةِ) : الأمور المحكمة والأدب الجامع لكل خير .

(مَدْحُوراً) : مطرودا ومبعدا مقصيا فى النار .

التفسير

٣٦ - (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) :

أى لا تتبع مالا تعلمه ، فلا تقل بغير علم ولا تتهم بغير بينة ، ولا تقل سمعت وأنت لم تسمع ، ولا تشهد بالزور ، ولا تتبع الظن والحدس فى حق الناس ، فإنك بذلك تكون قد قلت مالا تعلم ، واتبعت ما ليس لك به علم وأخطأت بذلك فى حق الله وحق عباده وحق نفسك.

وهناك أمور يعمل فيها بالظن ، كالحكم على شخص معين بالإيمان تبعاً للظاهر ، وكالإفتاء بالأحكام الشرعية عن الأدلة الظنية ، وكالعلاج بالعقاقير التى يظن فيها الشفاء .

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) : أى أن كل واحد من أعضاء السمع والبصر والقلب كان صاحبه مسئولا عنه ، فلا يحل له استعمالها فى غير ما أحل الله تعالى ، فلا تتسمع إلى غيرك محاولا كشف عوراته ، ولا تلق بأذنك إلى مالا يحل من فحش القول ، أو إلى ما يلهيك عن عبادة ربك ، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أما البصر فا غضضه عما لا يحل لك ولا تمده إلى ما متع الله به غيرك تحسده عليه ، بل عليك أن تنظر بذلك البصر ما يقربك من ربك ، وما يوصلك إلى رزقك ، أما قلبك فاحفظه من شيطان موسوس أو حسد قاتل مدمر أو عُجْب أو نفاق أو رياء ، فإن هذه الصفات وما يشبهها من الموبقات المهلكات ، واطرد حظ الشيطان من نفسك حتى لا يكون له عليك سلطان ، فيصبح قلبك سليما ، وتلقى ربك راضيا مرضيا فتدخل رحمته وتفوز برضوانه .

٣٧ - (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) :

أى لا تسر فى الأرض مختالا مسرفا فى فرحك ومرحك ، بل تواضع لله الذى خلقك ورزقك ، وهو قاهر لك قادر عليك ، فإن غلبك البطر والغرور لجاهك ، فا علم أن الجاه نعمة من الله يمنحها ويسلبها ، وإن طغيت على غيرك لعافية وصحة بدن فتذكر أنها وديعة الله عندك يستردها متى شاء ، وإن دعتك نفسك الأمارة بالسوء إلى التكبر على عباده بمالك فاعلم أن الله يغار عليهم فهو ربهم وخالقهم ، وإن زهوت بالبنين فتذكر أنك ستقدم على ربك بعملك فحسب « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) : إنك مهما تخايلت بخطواتك واشتددت فى إيقاع أقدامك على الأرض ،فإنك لن تخرقها بخطوك ،ومهما تطاولت بهامتك كبرا وفخراً ورفعت رأسك تيها وعُجْبا ، فلن تساوى الجبال الشواهق بطولك أو تطاولك . فدع عنك الخيلاء والتعالى على الناس ، فأنت مخلوق ضعيف .

٣٨ ـ (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) :

أى كل ذلك المذكور فى الأوامر والنواهى السابقة من الخصال كان السيء منه مكروها فى حكم الله وشرعه ، فدع ما نهاك عنه واستمسك بما أمرك به حتى لا تكون مبغضا من الله وبعيداً عن رضوانه ورحمته .

٣٩ ـ (ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) :

أى ذلك المذكور من الآداب والأحكام التى جاءت فى الآيات المتقدمة ، هو ما أنزله إليك وحيا ، وجعله من الأمور المحكمة التى لا يتطرق إليها النسخ ، فهى موجودة فى جميع شرائع الله ، لأنها جامعة لكل أدب وخير ففيها محاسن الأخلاق ومحامد الشيم فلا تنسخ ولا تتغير باختلاف الشرائع .

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) : أى واحذر أيها المكلف أن تتخذ مع الله إلهاً غيره « إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » فإن فعلت ذلك فقد حق عليك أن ترمى وتطرح فى نار جهنم فى مهانة وذلة ، وأنت ملوم من نفسك على ما اقترفت وملوم من الملائكة خزنة جهنم حين تعنفك فتقول لك ولاً مثالك : «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » فتجيبون بذلة ومهانة وتقولون :

« بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ »[1] .

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٧١

(أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ) : أفضلكم ربكم فآثركم بصفوة الأولاد .

(عَظِيماً) : أى كبيرا ، والمراد به هنا الأمر البالغ النُّكْرِ والقبح .

(صَرَّفْنَا) : بَيَّنَّا المعانى بوجوه وصور مختلفة .

(نُفُوراً) : إعراضا ... ، (لَا بْتَغَوْا) : لطلبوا مجتهدين فى الطلب .

التفسير

٤٠ ـ (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) :

بعد أن بين سبحانه ـ فساد طريقة من يجعل لله شريكا ونظيراً ، نبه فى هذه الآية على شدة جهل من أثبت لله الولد . . وخصه سبحانه بالإناث . .

والمعنى : أفضّلكم ربكم على جنابه ــ سبحانه ــ فخصكم بأفضل الأولاد ، واختار لذاته أدناهم وأقلهم شأنا ، فإن دعواكم أن الله قد اختار الملائكة بنات له ــ سبحانه ــ تَسْتَلْزِمُ أنه اختار لكم البنين أفضل النوعين وأحبهما إليكم ،ورضى لنفسه البنات وهن أدناهما فى نظركم مع أنه هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا حد له فكيف تنسبون إليه ما تسوءُالبشارة به وجوهكم ، ويملأُ الغيظ بسببه قلوبكم ، أتجعلون لله ما تكرهون دون حياء . فتأتى قسمتكم جائرة ظالمة ، تدل على جهلكم بالله وسوء تقدير لعظمته ، إنكم بافترائكم على الله تعالى . . وقولكم إن الملائكة بنات الله تقولون قولا منكراً . . كبيراً فى الإثم تحاسبون عليه وتعذبون به أشد العذاب يوم القيامة ، فإنه تعالى واحد أحد « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يكن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

٤١ ــ (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا . . وَمَا يَزِيدُهُم إِلَّا نُفُوراً) :

أى ولقد كررنا وأكدنا العبر والعظات والأحكام فى هذا القرآن المجيد بأساليب متنوعة ، ليتعظوا ويعتبروا فيهتدوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى بارئهم رجاءً فى ثوابه وخوفا من عقابه ، ولكنّ هؤلاء المجرمين الضالين المكذبين لا يريدون هداية ولا إرشاداً ، بل إنهم مع تكرار التذكير وتأكيد التوجيه إلى الخير ، لا يزدادون إلا تباعداً عن الحق وإصراراً على الباطل ، وإعراضا عن التدبر والاعتبار .

٤٢ ــ (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّا بْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً) :

قل يأيها الرسول لهؤلاء المشركين المفترين العابدين للأصنام ،وغيرها من دون الله ــ قل لهم : لو صح ما تزعمونه وتفترونه ــ وهو وجود آلهة مع الله ــ سبحانه وتعالى ــ لطلب هؤلاء الآلهة بكل جهدهم واجتهادهم أن يسلكوا طريقا إلى الله ذى السلطان والقهر ليشاركوه الأمر ، أو ينازعوه السلطة ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، لأن ما تزعمونه من آلهة هى فى الحق عاجزة لا تقدر على خير ولا شر ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فضلا عن أن تملك أمر غيرها .

٤٣ ـ(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً) :

تنزه سبحانه ،وتعالى علواً شاملا عما يقوله هؤلاء من نسبة الشريك والولد لله تعالى.. فالله جل جلاله هو الواحد الأحد لا شريك له ولاولد .

٤٤ ـ(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وإن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّاتفقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) :

بعد أن بين الله لهؤلاء المشركين فساد زعمهم بنسبة الشريك والولد لله ،ونزه نفسه تنزيها كاملا عن ذلك ، جاء بهذه الآية ليبين لهم : أن الخلائق جميعها علويّها وسفليها ، عظيمها وحقيرها ، مايدركه الإنسان وما هو فوق إدراكه ،كل ذلك خاضع له معترف بقهره وسلطانه ونعمه وآلائه .

والمعنى : أن السموات السبع بأجرامها وكواكبها وأفلاكها وسكانها وجميع قواها وعناصرها. . . .وكذلك الأرض بما اشتملت عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد وغيرها ، كل أولئك يسبح وينزه حامدا الله تعالى بلسان الحال والدلالة كما تدل الصنعة على الصانع .

ولا نرى مانعا من أن يكون لهذه الكائنات تسبيح قولى غير مسموع منا وغير معروف الحقيقة والكيفية لنا ، كما يشير إليه قوله تعالى : «يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ »[١] . أى رجعى التسبيح مع داود ، وقوله سبحانه : « إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »[٢] . أى سخرناها لتسبح مع داود فى وقتى العشى والإشراق ، ولولم يكن تسبيحا قوليا لَمَا قيد بهذين الوقتين كما يؤكد ذلك ظاهر قوله تعالى هنا : «وإن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ».[٣] لأن لغة الجمادات والحيوانات لايفقهها من البشر سوى من أوتى خاصية فهمها كداود وسليمان عليهما السلام ،وفيهما يقول الله تعالى؛ حكاية عنهما : « وَعُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » . ولكنكم أيها الناس لا تفقهون تسبيحهم ولا تدركونه .

ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين الذين تقدم الحديث عنهم ، تقريعًا لهم ، والمعنى على هذا : وما من شيء إلا ينزه الله تعالى عن الشريك والولد ، ولكنكم أيها المشركون لاتعقلون

(١) سورة سبأ : من الآية ١٠ . (٢) سورة ص الآية ١٨ . (٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

تنزيههم هذا ، لأنكم لاتنظرون فى الكائنات نظر المتفكرين فى خلق الله ومع غفلتكم هذه وعنادكم فإن الله سبحانه أمهلكم فلم يعجل لكم العقوبة ، وذلك لحلمه عليكم، لعلكم تثوبون إلى رشدكم وترجعون إلى ربكم ، فإذا تُبْتُم وأنبتم كان غفران الله لكم وعفوه عنكم . . فإنه كان ولايزال كثير الحلم واسع المغفرة ، قابل التوب .

(وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(حِجَاباً مَّسْتُوراً) :أى غير حسّى فهو لهذا مستور لايرونه. (أَكِنَّةً) :جمع كنان والكنان هو الغطاءُ الذى يُكَنُّ فيه الشيءُ أى يحفظ ويستر. (أَن يفْقَهُوهُ) :أن يفهموه فهم تدبر وتأثر واستجابة . (وَقْراً) : صَمَماً مانعا من سماعه ، والوقر الثقل فى الأُذن .

(وَلَّوْا عَلَىٓ أَدْبَارِهِمْ) : انصرفوا على أعقابهم هاربين معرضين . (نُفُوراً) : جمع نافر وهو منصوب على الحال ـ أى نافرين ، والنافر المتباعد المتجافى ، أو مصدر نفر منصوب على المفعولية المطلقة لوَلَّوا ، لأنه بمعناه .

(وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) : أى أصحاب نجوى يتناجون فيما بينهم بالافتراء والإثم ، والنجوى هى حديث السر بين من يَخْلُون بأنفسهم ليتناجوا فى خفية وإسرار. (رُفَاتًا) : والرفات الأجزاء المفتتة من كل شىء ينكسر ، وقيل الرفات والفتات ما تكسر وتفرق من التبن ونحوه ، والمراد هنا ــ والله أعلم ــ ما تصير إليه أجسادهم من التفرق بعد الموت .

التفسير

٤٥ ــ (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا) :

أى فإذا قرأت يا محمد القرآن تدبرا وعبادة لله ، وإرشادا وتعليما لقومك ، جعلنا بينك وبين المشركين الكافرين بالآخرة حجابا ساترا ، يمنعهم أن يدركوا ما أنت عليه من النبوة والرسالة وجلال القدر وعظيم المكانة ، حتى اجترءوا عليك ونسبوا إليك نقائص وعيوبا أنت منها برىء ، ومن ذلك قولهم : «إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا» .

٤٦ ــ (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) :

هذه الآية مفسرة للحجاب المستور الذى جاء فى الآية السابقة ، وكأنه قيل :
وذلك الحجاب المستور هو أنا جعلنا على قلوب هؤلاء المشركين أكنة وأغطية تمنعهم من فقه القرآن ، والوقوف على كنهه ، كما أصبنا آذانهم بالصمم والثقل العظيم ليحول بينهم وبين سماعهم لكتاب الله سماعا لائقاً به ، فإنهم كانوا يسمعونه سماع استهزاء وسخرية لا سماع تأمل وتدبر ، وهذا المنع كان جزاءً لهم على إعراضهم ، فلم ينعموا بنعمة الاهتداء إلى القرآن ، لإصرارهم على الجحود والإنكار .

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) : أى وإذا سمعك هؤلاء المشركون تقرأ من القرآن الكريم ما ينطق بتوحيد الله وتسبيحه ، أدبروا وفروا هروبا وانزعاجا من سماعه ، لأنه ينفرهم من أصنامهم ، وينهاهم عن عبادتها مع الله تعالى .

٤٧ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

هذه الآية الكريمة فيها تسلية لرسول الله ، ووعيد لهؤلاء المستهزئين ، فقد أخبر الله رسوله بأنه - سبحانه - يعلم بحالهم الذى يستمعون به القرآن وقت استماعهم إليه حين يتلوه ، من الاستخفاف وإثارة اللغو والتصفيق والصفير ، وكما يعلم ذلك يعلم - سبحانه - أمرهم حين يتناجون فيما بينهم ويتهامسون عنه فى خلواتهم ، ويفترون عليه الكذب .

ويقول هؤلاء المشركون الضالون عن صراط الحق يقولون للناس إنكم حين تتبعون محمدا لا تتبعون إلا رجلًا قد أصابه السحر فاختلط عليه الأمر ، ويعقب الله هذه التهم بقوله :

٤٨ - (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) :

انظر يا محمد - عليك الصلاة والسلام - متعجبًا من حمقهم وسفاهتهم ، كيف تطاولوا عليك فزعموا أنك ساحر ، كما زعموا من قبل أنك كاهن وشاعر ومجنون ، فضربوا لك الأمثال فضلوا وبعدوا عن الحق وتحيروا فى أمرهم معك ، فهم لا يهتدون إلى الحق ولا إلى طريق ينال منك أو يصرف الناس عنك .

٤٩ - (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) :

وقال هؤلاء المشركون - منكرين البعث مستبعدين له - : أئذا متنا وصرنا عظامًا وحطامًا مفتتًا ، نبعث من قبورنا ، ونخلق خلقًا جديدًا كما يقول لنا محمد ، وهذا القول منهم هو غاية الإنكار لأدلة الإمكان والوقوع ، أما الإمكان فلأن الله الذى خلق الناس ابتداء باعترافهم قادر على إعادتهم وبعثهم من قبورهم للحساب لأن الإعادة أيسر من الابتداء عادة ، وأما الوقوع فلأنه تعالى عادل فلا يعقل أن يترك المحسن دون إثابة ، والمسيء دون عقاب ، فلا بد من البعث لينال كلٌّ جزاء ما قدمت يداه .

* (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢))

المفردات :

(فَطَرَكُمْ) : خلقكم على غير مثال سابق .

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ) : يحركونها تعجبًا وسخرية .

(فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) : تلبون دعوته حامدين إياه على بعثكم بعد الموت ، وعلى ما يتصف به من عظمة وقدرة وحكمة ظهرت آثارها فى البعث بعد الموت .

التفسير

٥٠ ، ٥١ - (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) :

الآية الكريمة إجابة عن سؤال الكفار السابق : « أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » .

والأمر بالقول موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلِّ داعٍ بدعوته .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين ، وليقل كل داع إلى الحق لأمثالهم : لماذا تستبعدون وتنكرون بعثكم بعد أن صرتم عظاما ورفاتا ، كونوا ما شئتم بعد الموت ولو حجارة أو حديدا أو خلقا مما يعظم فى نفوسكم ويعلو عن أن تحله الحياة فإنكم عائدون إلى الحياة .

(فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا) : فسيقولون فى دهشة واستنكار من الذى يستطيع أن يعيد إلينا الحياة بعد هذا التحول العجيب ، من الحياة الدافقة المتحركة إلى الموت ثم إلى العظام والرفات ، فضلا عن التحول إلى الحجارة أو الحديد أو أشباههما ، وقد أمر الله تعالى أن يجابوا عن هذا التساؤل الذى لا مبرر له بقوله :

(قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : أى قل لهم أيها الرسول : الله الذى خلقكم أول مرة من عناصر التربة الأرضية الجامدة الميتة على غير مثال سابق ، هو الذى يعيد إليكم الحياة وإن تحولت أجسامكم من عظام ورفات إلى حجارة أو حديد أو نحوهما ، والمعروف لنا أن الإعادة عند البشر أسهل ، ولكنها تحت قدرة الله لا توصف بالسهولة أو الصعوبة ، فكل الممكنات عنده سواء ، لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون »[1] .

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا) :

أى فحينما يستمعون هذا الجواب سيحركون رءوسهم منكرين ساخرين قائلين فى دهشة وإنكار : متى يتم هذا البعث ؟ فقل لهم : سيكون هذا البعث قريبا ، لأن كل آت وإن طال الزمان قريب .

٥٢ - (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) :

أى يتم بعثكم يوم يدعوكم إليه فتهبون من قبوركم ملبين دعوته ، كما قال تعالى : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ »[2] . والمقصود بالدعوة النفخة الثانية ، المعبر عنها بالصيحة فى قوله سبحانه : « يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »[3] .

وعند بعثكم تلهجون بحمده تعالى مدركين عظمته وقدرته ، وأنه أهل للحمد والثناء ويزول عنكم هذا الإنكار والعناد ، بعد أن شاهدتم الحقيقة التى كنتم سمعتموها من رسولكم فى دنياكم .

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢ (٢) سورة الروم : الآية ٢٥

(٣) سورة ق : الآية ٤١ ، ٤٢

(وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً) : أى تعتقدون عند البعث أنكم لم تلبثوا فى الدنيا أوفى الحياة البرزخية إلا زمنا يسيرا ، كما قال سبحانه : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[1] .

(وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣)

المفـردات :

(يَنزَغُ) : يفسد ويغوى بالعداوة والبغضاء ويثير الضغائن والأحقاد .

التفسير

٥٣ ـ (وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) :

بعد أن بين الله جحود الكفار للبعث ومعاداة الحق أمر رسوله فى هذه الآية أن يقول للمؤمنين : عليكم أن تلهجوا بالقول الحسن وأن تتمسكوا به وأن تطبقوه فى حياتكم . . والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين آمنوا بى وشرفوا بالنسبة إلى ، قل لهم يقولوا الكلمة التى هى أحسن الكلام ، وأن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يقابلوا الإساءة بالإحسان فإن هذه سنة عباد الرحمن ، كما قال سبحانه فى سورة الفرقان : « وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً »[2] .

وقيل : المقصود بالعباد جميع الناس فإنهم جميعا عبيد الله والنصيحة عامة لهم . والمعنى على هذا : قل أيها الرسول لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يأمرون بما أمر الله به وينهون عما نهى الله عنه .

---

(١) سورة النازعات : الآية ٤٦

(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٣

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ) : إن الشيطان يفسد بين الناس ، ويثير بينهم العداوة والبغضاء ويبث فيهم الأحقاد والضغائن ، فيمزق شملهم ويفرق كلمتهم ، ويهدم وحدتهم ، أو يغريهم بالكفر والإلحاد وارتكاب الشرور والآثام ، فلهذا ينبغى أن يعالجوا بالكلمة التى هى أحسن .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) : أى إن الشيطان كان عدوا للإنسان واضح العداوة منذ أغوى أباهم آدم وأخرجه من الجنة ،فعليهم أن يتغلبوا على إغوائه بالتزام الكلمة الطيبة والقول الحسن ،ليردوه عن متابعة وسوسته وإغوائه ، فإنه يزين القبيح للإنسان ويجلوه أمامه فى صورة حسنة ، فيدفعه إليه دفعاً ، ويقبح له الحسن فينفره منه تنفيرا .

(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَكِيلاً) : كفيلا .

(زَبُورًا) : الزبور هو الكتاب المنزل على نبى الله داود عليه السلام ، وهو كتاب ليس فيه تشريع ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد .

التفسير

٥٤ - (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ) :

بعد أن بين الله أحوال الكافرين ،ودعا المؤمنين إلى التزام القول الحسن وحذرهم من إغواء الشيطان ، خاطب المكلفين جميعا بأنه مطلع على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم ، فإن يشأ

شملهم برحمته لأنه يعلم أنهم أهل لرحمته ، وإن يشأ عذبهم لأنه يعلم أنهم قصروا فى جانبه ، ومشيئته مرتبطة بحكمته « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[١] .

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) :أى وما أرسلناك أيها الرسول كفيلا لهم ومسئولا عن طاعتهم أو معصيتهم ، فكل امرىء منهم بما كسب رهين .

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه »[٢]

٥٥ـ (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى أنه سبحانه يحيط علمه بكل من فى السموات والأرض « لا يَعْزُبُ عَنْه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ » . فلهذا اختار من يعلم أنهم صفوة البشر أنبياء ، وفضل بعضهم على بعض ، كما قال سبحانه : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ». وكان تفضيلهم بالفضائل النفسانية والعلمية ، لا بكثرة الأموال والأتباع وغير ذلك من أمور الدنيا ، وأقربهم إليه خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله ربه رحمة للعالمين .

قال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

(وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) : خص الله سبحانه داود بالذكر مع دخوله فى الأنبياء قبله ، ليبين أنه عليه السلام ممن فضلهم الله على بعض الأنبياء وذلك بإنزال الزبور عليه ، وقد اشتمل على تسابيح الله وإشارات إلى جلاله وعظمته وقدرته وكان يرتله بصوت عذب شجى ، تردده معه الطيور والجبال كما قال تعالى فى سورة ص : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ »[٣].

---

(١) الكهف : من الآية ٤٩

(٢) الزلزلة : الآية ٧ ، ٨

(٣) ص : الآية ١٨ ، ١٩

وهذه الجملة « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » تشير إلى أن الكتب المنزّلة على الأنبياء ، هى شهادة من الله بفضلهم ، وبمقدار مسئولياتهم فيها تتفاوت درجاتهم .

(قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(زَعَمْتُمْ) : ادعيتم كذبا .

(كَشْفَ الضُّرِّ) : إزالته .

(تَحْوِيلاً) : صرفًا وإبعادًا .

(الْوَسِيلَةَ) : الصلة أو السبب .

(مَحْذُورًا) : أى مخشيا مرهوبا .

التفسير

٥٦ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ) :

بينت الآيات السابقة أن علمه تعالى محيط بخلقه ، وأنه يرحم من يشاءُ ويعذب من يشاءُ طبقا لعلمه وعدله وحكمته ، وجاءت هذه الآية لتبين للمشركين عجز آلهتهم ، والمعنى : تضرعوا أيها المشركون إلى الآلهة الذين عبدتموهم من دون الله ، وانظروا هل تسمع إلى ضراعتكم ، أو تجيب دعاءكم أو تدفع عنكم الضر أو تجلب إليكم النفع .

(فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً) : أى أن هذه الآلهة المزعومة لا تستطيع ولا تملك أنْ تزيل عنكم ما يعتريكم من الضر، ولا تملك أن تحوله عنكم إلى غيركم، بل إنهم عاجزون لا محالة، لأنهم كما قال تعالى فى سورة الفرقان : « وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »[1]. فكيف تعبدونهم من دون الله ؟

٥٧ - (أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) :

كان بعض العرب يعبدون الملائكة، وبعضهم يعبدون الحق تبارك وتعالى، كما كان بعض اليهود والنصارى يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، فنزلت هذه الآية فى شأن من يعبدون غير الله.

والمعنى : أن هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله هم خلق من خلق الله، وعبيد من عباده، خاضعون لمشيئته، منقادون لأمره يرجون رحمته ويخشون عذابه، يسبحون بحمده ويلهجون بذكره، ويتنافسون فى التقرب إليه بكل وسائل الزلفى.

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) :

أى هم مع ما تقدم من عبادتهم لله وتقربهم إليه يرجون رحمته ويخافون عذابه، لأن عذابه شديد أليم. فهم لا يعتمدون على طاعتهم، بل يخشون عقابه حذرا من تقصيرهم.

ويجوز أن يكون المعنى : أولئك المشركون الذين يعبدون الأوثان يبتغون بعبادتها الوسيلة إلى الله، ويرجون بذلك رحمة الله ويخشون عذابه، فأيهم أقرب إلى الله؟ لا شك أنّ أولئك العابدين أقرب إلى الله تعالى من أوثانهم، فهو سبحانه أقرب إلى عباده من حبل الوريد، فلا يصح أن يتقرب هؤلاء المشركون إلى الله بعبادة من هم أبعد منهم عن الله وأحط قدرا وأضعف قوة وشأنا، إن عذاب ربك يا محمد كان أمرا محذورا ومخوفا، فلماذا لا يحذره هؤلاء العابدون لأوثانهم، وقد أشركوا به من هو مَثَلٌ فى الضعف والهوان.

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٣

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

المفـردات :

(قَرْيَةٍ) : القرية اسم للموضع يجتمع فيه الناس ويتخذون منه سكنا لهم ، وتطلق أيضاً على سكانه . (الكِتَاب) : اللوح المحفوظ . (مَسْطُورًا) : مكتوبا مسجلا ، (الآياتِ) : المعجزات التي طلبها المشركون . (مُبصِرَةً) : داعية إلى إبصار الحق بدلالتها عليه وإرشادها الناس إليه .

التفسير

٥٨ - (وإن مِّن قَرْيَةٍ إلاَّ نَحْنُ مُهلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامةِ أَومُعذِّبُوهَا عَذابًا شَدِيدًا): حذر الله المشركين فى آخر الآية السابقة من عذابه بقوله : « إنَّ عَذابَ ربِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » ، وجاءت هذه الآية لتأكيد هذا التحذير.

والمعنى: إن من سنة الله تعالى مع الظالمين أنه ما من أهل قرية يقابلون أنعم الله بالجحود والكفران ويكذبون الرسل وينكرون المعجزات إلا أهلكهم الله سبحانه وفقاً لوعيده ،كما أهلك عادا وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع ،وفيهم يقول الله تعالى فى سورة (ق): « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ » .

وربما يصيب الله أهل هذه القرية بعذاب شديد دون الإهلاك ليرجعوا إلى الله تائبين نادمين ، لأنه سبحانه يعلم أنهم سيفيئون إلى الإيمان قبل نهاية حياتهم ، مثل أهل مكة ،

أو لأنه تعالى يعلم أن من ذريتهم من يعبد الله ،أو لغير ذلك من الحكم ، وقيل إن المراد أن الله سبحانه سيهلك جميع القرى قبل قيام الساعة ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة المزمل : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً » ، وقد ورد فى صحيح مسلم من حديث طويل عن الرجال ، رواه بسنده عن النواس بن سمعان عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرارُ الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » .

(كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا) : كان الإهلاك أو التعذيب قضاءً محتوماً وقدراً نافذا سجله الله عنده فى اللوح المحفوظ لتنفيذه فى الأجل المحدود .

٥٩ ـ (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) :

روى النسائى وأحمد والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك ، قال : وتفعلون ؟ قالوا نعم ، قال : فدعا فأتاه جبريل ، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، قال : بل باب التوبة والرحمة فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

والمعنى : أن الله لم ينزل المعجزات التى طلبها المشركون لأنه سبحانه يعلم أن قريشا سوف تجحد هذه المعجزات كما جحدها السابقون .وحينئذ تستحق الهلاك تطبيقاً لسنته فى شأن المكذبين بعد تحقيق ماطلبوه ،والله تعالى يعلم أنها ستستجيب لدعوة الإسلام بعد حين ،فلم ينزل هذه المعجزات المطلوبة واكتفى بإعجاز القرآن الكريم ، كما قال سبحانه : « وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[1] .

---

(١) سورة العنكبوت : الآيتان ٥٠ ـــ ٥١

وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ألا يعذب قومه ما دام فيهم قال تعالى : «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[١] .

(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) :

أيَ أَن الذى اقتضى عدم إرسال الآيات المقترحة أن قريشاً ستكذب بها ،كما كذب بها الأولون فتتعرض للهلاك مثلهم ، كما تعرضت ثمود لهذه التجربة حيث اقترحوا على نبيهم أن يأتيهم بناقة ترعى الكلأ وتشرب الماء كله يوما ،ثم تترك لثمود الكلأ والشراب يوماً آخر وتدر عليهم من ألبانها ما يكفيهم ، فعقروا هذه الناقة ، جاحدين منكرين « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[٢] .

ومعنى مبصرة : مدركة وعارفة نصيبها فى الكلإ والماء ، فلا تتعداهما إلى نصيب ثمود فيهما ، أو موضحة للناس الدلائل الباهرة على صدق نبى الله صالح عليه السلام .[٣]

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً) :ومانتنزل المعجزات المقترحة إلا إنذارا و إرهاباً للأمم الضالة ،لتعودإلى الإيمان . فإذا أصرت على الكفر والعصيان استحقت الهلاك والنكال والدمار.

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾)

المفـردات :

(أَحَاطَ بالنَّاسِ) : شملهم بعلمه أو أحاطت بهم قدرته .

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣

(٢) سورة فصلت : من الآية ١٧

(٣) من أبصر المتعدى بمعنى أنها جعلت ثمود يبصرون الآية والمعجزة فى شئونها المختلفة ، فلم يبق لهم عذر فى التكذيب .

(الرُّؤيَا) : ما يراه النائم فى منامه ، وقد تطلق على مايراه الإنسانفى يقظته ، كما قال الشاعر الراعى يصف صائدا :

وكبَّر للرؤْيا وهشَّ فؤاده وبشَّر قلباً كان جمًّا بلَابِلُه

وقال بعضهم : هى حقيقة رؤيا المنام ، ورؤيا اليقظة ليلا ، والمشهور الأول .

(الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ) : شجرة الزقوم التى وصفها الله سبحانه بأنها « شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ »[1]

(الْمَلْعُونَةَ) : الملعونَ آكِلُهاَ ، أو البعيدة عن مواطن الرحمة لأنها فى أصل الجحيم

(طُغْيَاناً) : مجاوزة للحد فى العنف .

التفسير

٦٠ ـ (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) :

بعد أن تناولت الآيات السابقة أقوال المكذبين والمعاندين ، أدخل الله السكينة والطمأنينة على نفس رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية .

والمعنى : واذكر يامحمد وعدنا إياك أن الله سبحانه أحاطعلمه وشملتقدرته الناس جميعاً ومنهم المشركون ، فلا يمكنهم من إيذائك أو إيقاع الضرر بك ، كما قال سبحانه : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »[2] . وقال : « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[3] .وهو سبحانه سيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء . .

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) :أى أن ما أطلعناك عليه عيانا من آياتنا الكبرى ليلة الإسراء ، لم نجعله إلا اختبارا لإيمان المؤمنين وامتحانا للمشركين ، ولما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم قومه بحديث الإسراء سخر منه المشركون ، وارتد عن الإسلام

(١) سورة الصافات : الآية ٦٤ ، ٦٥

(٢) سورة الحجر : الآية ٩٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

قِلَّةٌ من ضعفاء الإيمان ، وثبت على تصديقه والإيمان به الصادقون المخلصون ، وفى مقدمتهم أبو بكر رضى الله عنه ، ومن يومها أُطلق عليه لقب الصديق . راجع تفسير السورة .

(وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ) : أى وما جعلنا شجرة الزقوم المذمومة فى القرآن بأنها طعام الأثيم ، وما جعلناها إلا اختبارا للناس ، مؤمنهم وكافرهم ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الشجرة بأنها « تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشَّيَاطِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ »[1] . ويجوز أن يكون المراد من لعن الشجرة فى القرآن لعن آكلها أو أنها بعيدة ، من اللعن بمعنى البعد لأنها بعيدة من مواطن الرحمة لأنها « تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ » .

ولما نزلت هذه الآيات ، قال أبو جهل : إن محمدا يتوعدكم بنار وقودها الناس والحجارة ، ثم يقول : إنها ينبت فيها الشجر ، وما يُعْرَفُ الزقوم إلا التمر بالزبد ، ثم أمر جاريته فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه ساخرا : تَزَقَّمُوا ، والمعنى : وما جعلنا ما أريناك ببصرك من الآيات الكبرى فى السماء والأرض إلا فتنة وامتحانا للناس مؤمنهم وكافرهم ، وما جعلنا شجرة الزقوم إلا فتنة لهم أيضا ، فثبت الصادقون ، وارتد بعض الضعفاء من المؤمنين ، وأنكر المشركون ، لأن عقولهم القاصرة المحدودة لا تتصور أن تكون شجرة فى قاع جهنم جهلا منهم بقدرة الله التى لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيرًا) : أى وننذرهم بالآيات المنزلة ونذكرهم بما أصاب الأمم السابقة من هلاك ودمار ، فما يزيدهم الإنذار إلا إمعانا فى الضلال وغلوا فى العناد والكبرياء ، وإيغالا فى الجبروت والطغيان ، والفعل المضارع (نخوفهم) يدل على أنه تعالى يتعهدهم من آن لآخر بالإنذار والتخويف . ولكنهم مع ذلك لا يزدادون إلا طغيانا كبيرا .

---

(١) سورة الصافات : الآيات ٦٤ — ٦٨

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(أَرَءَيْتَكَ) : أخبرنى .

(لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ) :لأستولين عليهم بالإغواء .يقال ، احتنك فلان فلانا ، إذا استولى عليه وتولى قيادته كما يحتنك الإنسان الدابة بأن يضع حول فمها حبلا يقودها به وهو الرسن.

التفسير

٦١ ـ(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ) :

واذكر يا محمد للمشركين الذين استجابوا لإغواء إبليس فى الضلال والكفر ، قصة عداوته للبشرية . اذكر لهم حين قلنا للملائكة آمرين : اسجدوا لآدم الذى أبدعته قدرتنا من طين ـ اسجدوا ـ تحية له وتعظيما لقدرتنا ، فاستجابت الملائكة فسجدت سجود طاعة لربها وتعظيم لآدم الذى خلقه دون وسيط ، ولكن إبليس أعلن التمرد والعصيان فى تكبر واستعلاء .

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) :

أى قال : كيف أسجد وأنا مخلوق من النار لمخلوق خلقته من الطين المهين ... وهو بهذا يعلن عصيانه لأوامر الخلاق العظيم ويجحد حكمته التى اقتضت خلق الإنسان وجعلته خليفته فى أرضه ، وحامل أمانته بين خلقه ، وتعليمه الأسماء

كلها ، غفل إبليس عن هذا كله وأعلن تمرده وعصيانه وخروجه على طاعة خالقه ، وبهذا استحق الطرد من رحمة الله[١] .

٦٢ ـ (قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ) : أى قال إبليس لربه : أخبرنى عن هذا المخلوق الذى فضلته علىَّ مع أنه غير جدير بهذا التفضيل والتكريم .

(لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا) : أى والله لئن مددت فى عمرى إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته ، لأقودهم إلى الدمار والخراب وإلى الفساد والعصيان كما يقود الراكب دابته ، إلا طائفة قليلة منهم لا أقدر عليهم لأنك عصمتهم يارب من الضلال والإضلال ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »[٢] . ويقول سبحانه حاكيا على لسان إبليس : « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ »[٣] .

(قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(اذْهَبْ) : امض فى طريق غوايتك وإغوائك مطروداً من رحمتى .

(١) راجع القصة بتمامها فى تفسير الربع الثانى من سورة البقرة ، والربع الأول من سورة الأعراف .

(٢) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

(٣) سورة ص : الآية ٨٢ ، ٨٣ .

(مَوْفُورًا) : كاملا غير منقوص . (اسْتَفْزِزْ) : استحف واحفز وخادع .

(بِصَوْتِكَ) :بدعوتك إلى المعصية . (أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) :صِحْ عليهم صياحا شديداً واستحثهم على الشّر وادفعهم إليه دفعا .

(بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) : أى براكبى خيلك ، وجنودك الماشين على أرجلهم والمراد من يساعدك من أعوانك على اختلاف طاقاتهم وقدراتهم .

(غُرُورًا) : غشًا وخداعًا .

التفسير

٦٣ـ (قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا) :

لما توعد الشيطان أبناء آدم بالإغراء والإغواء لصرفهم عن عبادة الله سبحانه زجره الله سبحانه بهذه الآية ـ والمعنى : امض أيها الشيطان فى طريق غوايتك وإغوائك ،مطرودا من رحمتى أنت ومن اتبعك من البشر، فمصيرك وإياهم جهنم تجزون فيها جزاء موفورا تامًا وبئس المصير .

٦٤ـ (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ) :وادْفَعْ إلى الشر من استطعت دفعه منهم بصياحك عليهم. (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) : أى وادفعهم دفعا إلى ارتكاب الشر والموبقات مستعينا عليهم بجنودك من شياطين الإنس والجن من فرسان مسرعين ومشاة مبطئين ، أى بمختلف أساليب الإغواء ، وذكر الخيل والراجلين من باب التمثيل . (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) : واشترك معهم فى مباشرة كسب الأموال الحرام بالباطل ، واشترك معهم فى دفعهم إلى تنشئة أولادهم على الكفر والعصيان والضلال .

(وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) :أى واخدعهم بالمواعيد الكاذبة مزيِّنًا لهم الشّر مقبحا لهم الخير ، وألق الشك فى قلوبهم بحقيقة البعث والنشور ، وما ينتظرهم من عذاب أليم ،وما مواعيد الشيطان إلا أباطيل زائفة وأوهام خادعة لأن طبيعته قائمة على التغرير والخداع والنفاق فليفعل ما يشاء ، فليس له على أحد سلطان إلا الغاوين .

٦٥ - (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً) :

بينت الآيات السابقة أن الشيطان توعد ذرية آدم بأنه سَيَحْتنكهم ويغويهم إلا قليلا وأن الله هدده وأنذره بالفشل فى وسوسته مهما ضللهم بوعوده الزائفة ، وجاءت هذه الآية لتبين أنه تعالى يحفظ عباده الصالحين من نزغات الشيطان وينجيهم من إغوائه وأباطيله كما قال سبحانه فيه : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّونَهُ والَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكون »[1] . وحسبك أيها النبى أنت والمؤمنون الصالحون حسبكُم حماية ربك لك ولهم وكفالته إياكم ، وتخليصكم من مكايد الشيطان وجنوده ، فتوكلوا عليه واعتصموا به - وقيل إن الخطاب فى قوله تعالى : «وكفى بربك وكيلا »- موجه إلى الشيطان ،كما فى الجملة السابقة أى وكفى بربك أيها الشيطان وكيلا للمؤمنين من عباده ، فليعوذوا بى من شرك فإنى أعيذهم منه .

(رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(يُزْجِى) :يبعث ويرسل . (الْفُلْكَ) :السفن. (ضَلَّ مَن تَدْعُونَ) : انصرف عنكم أو غاب عن نصرتكم ومعونتكم من تعبدون . (كَفُورًا) : جاحدا للنعمة .

---

(١) سورة النحل الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠

التفسير

٦٦ - (رَبُّكُم الَّذِى يُزْجِى لكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ..) الآية .

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن فضل الله على عباده المخلصين بإنقاذهم من غواية الشيطان إذا لجأوا إليه واعتصموا به ، واستمسكوا بكتابه ، بعد ذلك تحدثت هذه الآية عن فضل الله على خلقه وموقفهم من هذا الفضل .

والمعنى: إن إلهكم صاحب النعمة الجزيلة عليكم هو الذى هيأ لكم صناعة السفن وتسخيرها فى حملكم من بلد إلى بلد ، وفى نقل حاصلات الشرق إلى الغرب وحاصلات الغرب إلى الشرق ، بأقل نفقة وبأيسر كلفة عبر المحيطات والبحار ، كما يسر لكم بها الانتفاع بخيرات البحار من لؤلؤ ومرجان وأصداف ولحوم وزيوت الأسماك ، كما سخرها ليمكنكم من منافع أخرى تبتغونها من فضله ، مثل استخراج البترول من قاع البحار .

(إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) : سخر الله لكم سبحانه هذا كله لأنه كان ولا يزال واسع الرحمة بكم ، ييسر لكم سبل الرزق من حيث تحتسبون أولا تحتسبون .

٦٧ - (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) :

وإذا تعرضتم لأخطار البحار ، من نحو زوابع وأعاصير وعواصف وأنواء وأسماك مفترسة متوحشة ، وتطلعتم إلى من يمد يده الرحيمة لإنقاذكم من الهلاك والدمار ، ذهب عن أذهانكم من تدعونه لتفريج كربتكم سوى الله القوى القدير اللطيف بعباده ، الرحيم بخلقه ، فإنكم تدعونه وحده ليكشف الضر عنكم وينجيكم مما أصابكم .

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) : فلما أنقذكم الله بفضله ورحمته ، وأوصلكم إلى الشاطىء سالمين قابلتم نعمته عليكم بالجحود ، وأعرضتم عنه منصرفين إلى آلهتكم . ومن المشاهد أن الإنسان بطبيعته وفطرته يلجأ إلى خالقه فى شدته ، فإذا جاءه الرخاء أعرض عن ربه إلا من عصم الله كما قال سبحانه : « فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » (١) .

(١) سورة يونس : الآية ١٢

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

المفردات :

(يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) : يغيبكم فى جوفه وقد ظننتم الأَمن فيه .

(حَاصِبًا) : ريحا ترميكم بالحصباء فتهلكوا .

(وكِيلاً) : حافظاً يرعاكم . (قَاصِفًا) : عاصفًا محطما مدمرا .

(تَبِيعًا) : ناصرا ومعينا .

التفسير

٦٨ - (أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً) :

إذا نجاكم الله من أهوال البحر وعدتم إلى البر قابلتم فضله بالجحود ، فهل أمنتم أن ينالكم عذابه وأنتم فى البر ، بأَن تتعرضوا لزلزال مدمر يقلب بكم الأَرض ظهرا لبطن فيدفنكم فيها وأَنتم أحياء، كما خسف بقارون وبداره الأَرض ، أَو أَن يرسل عليكم ريحا تحمل الحصباء ، كما فعل بقوم لوط .

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً) . ثم لا تجدوا حينئذ من تكلون إليه أمر الدفاع عنكم ، بأَن يصرفه عنكم أَو يحفظكم من ضرره ، فإنه لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه.

٦٩ - (أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ) :

بل أأمنتم أن يعيدكم إلى ركوب البحر مرة ثانية فيرسل عليكم ريحا عاصفا محطما مدمرا يطويكم فى جوف الأمواج فتغرقون بسبب كفركم ، وبالجملة ينبغى أن يعلم كل امرىء أنه فى قبضة إله قوى جبار فعال لما يريد ، فعليه أن يطيعه ويخشاه ، سواء أكان فى بحر أم فى بر ، ولا ينبغى له أن يأمن مكر الله تعالى : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ »(1) .

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) : ثم لا تجدوا لكم حينئذ نصيرا أو منقذا يتابعكم ليدفع عنكم الأخطار ، أو متابعا لنا مطالبا الثأر لكم منا .

(۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾)

التفسير

٧٠ ـ (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) :

يخبر الله سبحانه بهذه الآية عن تكريمه بنى آدم ، وتفضيله إياهم حيث خلقهم جميعا ، برهم وفاجرهم ، على أحسن الصور التى تتمثل فى اعتدال القامة وتناسق الخلق وجماله ونعمة العقل والإدراك ، وفى طعامهم وشرابهم ؛ وَكُلُّ شأن من شئون حياتهم يتميزون به عن غيرهم من جميع مخلوقاته ، وإتماما لتكريمه سبحانه إياهم وهبهم قدرة تمكنهم

(١) سورة الأعراف : ٩٧ – ٩٩ .

من التسلط على مافى الأرض ،من كنوز ومياه ومعادن وبترول ،وغير ذلك مما جعلهم يقيمون الصناعات ، ويستنبتون الزروع ويغرسون الأشجار ، ويملكون سبل التقدم والعمران كما مكنهم من الانتفاع بما فى السماء ، من هوائها وسحابها . وسائر كواكبها وأجرامها التى أمدتهم وتمدهم بطاقات كثيرة لا غنى لكائن حيٍّ عنها ، فضلا عن الاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ، وقصارى القول أن الله تعالى سخر كل شىء لتكريم الإنسان. وكان هذا التسخير بقدرته تعالى ، وليس بقدرة البشر .

(وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) :أى أنعمنا عليهم فحملناهم فى البر على الدواب من الإبل والخيل والبغال وعلى غيرها من وسائل الانتقال . كما حملناهم فى البحر على السفن المختلفة الأشكال والأحجام المختلفة الأغراض .

(وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) : التى تجمع فنون المطاعم والمشارب اللذيذة التى منحناهم إياها ، مما لايتسنى لهم أن يحصلوا عليها بصنعهم ، وإن صنعوها فبتيسير الله وإقداره ، وإجرائها فى مواد مخلوقة له سبحانه ، أما غيرهم من الحيوانات فأرزاقها مما تعافه أنفسهم .

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) : أى أن الله جل شأنه فضلهم تفضيلا عظيما على كثير ممن خلقهم سبحانه بأمور كثيرة ، إذ شرفهم بالعقل الذى هو عمدة التكليف وبه يعرف الله ، وتفهم تعاليمه ، ويحصل بهديه التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، وذلك مما يوجب عليهم شكر المنعم المتفضل ، ويتحقق شكره بتوحيده وإخلاص العبادة له سبحانه ، ورفض الشرك الذى لايقبله من له أدنى تمييز. فكيف بمن فضل على ماسوى الملإ الأعلى ، من كل مايدب على وجه الأرض أو يحلق فى أرجاء السماء ، وكما فضلهم بالعقل فضلهم بأمور خلقية ذاتية ، مثل النطق والصورة الحسنة، والقامة المديدة المعتدلة ، إلى غيرذلك مما امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان .

واعلم أن الرسل من البشر أفضل من الملائكة مطلقا ، ثم الرسل من الملائكة مفضلون على من سواهم من البشر والملائكة . ثم عموم الملائكة على عموم البشر . وهذا رأى الجمهرة من العلماء .

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(نَدْعُو) : ننادى . (بِإِمَامِهِمْ) : بنبيهم أو بكتاب أعمالهم . (فَتِيلاً) : الفتيل هو الخيط الدقيق الممتد فى شق النواة طولا . والمراد به المقدار البالغ الغاية فى القلة من العمل .

(أَعْمَىٰ) : يراد به أعمى البصيرة .

التفسير

٧١ـ (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) :

هذا شروع فى بيان تفاوت أحوال الناس فى الآخرة حسب تفاوت أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا .

والمعنى : اذكر لقومك أيها النبى يوم ننادى كل جماعة من بنى آدم بمن ائتمموا به واتبعوه من نبى وكتاب تشريع ، أو كتاب الأعمال التى قدموها ، فيقال لهم يا أتباع محمد أو موسى أو عيسى عليهم السلام ، أو يا أتباع القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو يا أصحاب كتاب الخير . أو يا أصحاب كتاب الشر .

والراجح أن يكون المراد هنا بالإمام كتاب الأعمال على ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ » أى بكتاب أعمالهم ، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك ، لقوله تعالى : «وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ »[1] . ويجوز أن

---

(١) سورة يس : الآية ١٢ .

يكون المراد بإمامهم دينهم الذى دانوا به فى الدنيا صحيحا أو فاسداً، فينادى يا أصحاب دين كذا ليسلّموا كتبهم .

(فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) : أى فمن أعطى كتاب أعماله من أولئك المدعوين فأخذه بيمينه كان ذلك تبشيرا وتشريفا له .

(فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ) :أى فهولاء المختصون بتلك الكرامة يقرأ كل منهم كتابه ، وحين يسر بقراءته ينادى إخوانه مبتهجا تعالوا فاقرءوا كتابى ، لتروا ما أكرمنى الله به من الثواب العظيم ، كما قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[1] .

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) : أى ولا ينقصون من ثواب أعمالهم المكتوبة فى صحائفهم أى شىء ولو بلغ الغاية فى القلة . فكان قدر فتيل وهو الخيط الرفيع فى شق النواة ويضرب به المثل فى الصغر وفيما لاقدر ولا اعتداد به لدى المخلوقين .

٧٢ - (وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى) الآية .

أى ومن كان فى الحياة الدنيا أعمى البصيرة عن حجج الله وبيناته ،وعن كل ما أولاه الخالق جل شأنه من نعم ظاهرة وباطنة . فهو فى الآخرة أعمى لا يهتدى إلى ما ينجيه . ولا يجد ما يجديه ، لأن عماه فى الدنيا بإعراضه عن توحيد الله أوجب هذا التخبط فى الآخرة والحرمان فيها .

وعن ابن عباس :ومن كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى ، فهو فى الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيل ومن كان فى هذه الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين كما قال تعالى : « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » .

(وَأَضَلُّ سَبِيلًا) :عما كان عليه فى الدنيا ،حيث استحالت عليه جميع أسباب النجاة لفقده كل طريق يوصل إليها ، إذ لا توبة فى تلك الدار ولا إمهال . ولا عودة لتدارك ما فات .

---

(١) سورة الحاقة : الآية ١٩ ، ٢٠

وهذا الفريق الذى عميت بصيرته فى الدنيا وكان أعمى فى الآخرة، هو الفريق الذى أوتى كتابه بشماله، بدلالة ذكره مقابلا للفريق الذى أوتى كتابه بيمينه، ولم يذكر بعنوان أوتى كتابه بشماله صريحا كما ذكر الفريق الأول بعنوان إيتاء كتابه بيمينه، اكتفاء بذكر السبب الموجب لذلك وهو كونه أعمى البصيرة فى الدنيا، وأعمى وأضل سبيلا فى الآخرة .

(وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(وَإِن كَادُوا) : وإن قاربوا. (لَيَفْتِنُونَكَ) : ليصرفونك . (لِتَفْتَرِىَ) : لتختلق .

(خَلِيلًا) : صفيا وصاحبا من الخُلة ، بضم الخاء وهى الصحبة .

(تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) : تميل إليهم .

التفسير

٧٣ ـ (وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . . .) الآية .

قال ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية ؛ إن وفد ثقيف أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ مايهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرم وادينا كما حرمت مكة حتى يعرف العرب فضلنا عليهم، فهمَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعطيهم ذلك فنزلت. وقيل سبب نزولها هو قول أكابر قريش

للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالى ، حتى نجلس معك ونسمع منك ، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فيما يقولون فعصمه الله وأنزل الآية .

والمعنى : وإنه كاد هؤلاء المشركون بما اقترحوه عليك أن يوقعوك فى الفتنة بأن تستجيب إلى ما طلبوه منك من أمور تقربك منهم .

(لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) : أى يأملون بذلك أن تختلق علينا غير الذى أنزلناه إليك ، وأمرناك باتباعه فتخالفه إلى تنفيذ ما اقترحته عليك ثقيف من تحريم واديهم كتحريم مكة أو طلبته قريش من إقصاء الفقراء عنهم ، فكادت نفسك تميل قليلا إلى موافقتهم رجاء إيمانهم رحمة بهم .

(وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) : أى لو استمعت إليهم لقربوك منهم ، صفيا وصاحبا وكنت وليًا لهم .

٧٤ - (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) :

أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتنا لك لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا لشدة احتيالهم عليك ، وخداعهم لك ومكرهم بك ، ولكنك أدركتك عنايتنا ، فحالت بينك وبين القرب من أدنى مراتب الركون ، وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم ما هم بإجابتهم مع قوة الداعى إليها ، قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

٧٥ - (إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) :

أى لو قاربت الركون إليهم لجمعنا عليك عذابا مضاعفًا فى الدنيا والآخرة ، حيث يكون هذا العذاب ضعف ما يعذب به غيرك فى الدارين إذا فعل مثل هذا الفعل ، لأنه كلما كانت الدرجة أعلى والمنزلة أسمى كانت المؤاخذة على الخطيئة أشد وأقوى .

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) : يمنع عنك العذاب ويحول بينك وبينه إذ لا سلطان فوق سلطاننا حتى تجد فيه ملجأً أو معينًا .

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات :

(وَإِن كَادُوا) : أى وإن قاربوا. (لِيَسْتَفِزُّونَكَ) : ليزعجونك ،يقال استفزنى فلان أزعجنى . (خِلاَفَكَ) : بَعدك .

التفسير

٧٦ - (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) :

قال مجاهد وقتادة : نزلت هذه الآيات فى همِّ أهل مكة بإخراجه صلى الله عليه وسلم من أم القرى ولو أخرجوه منها لما أُمهلوا ولكن الله أمره بالخروج فخرج .

والمعنى : قارب أهل مكة أن يزعجوك بعداوتهم وشدة إيذائهم. ليخرجوك من الأرض الطيبة أرض مكة قبل أن يأْذن الله لك بالهجرة .

(وَإِذًا لَّايَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلاً) :

أى ولو حققوا ماهمُّوا به ، بإكراهك علىٰ الخروج لم يبقوا بعد إكراهك عليه إلا زمنا قليلا يستأْصلون ويهلكون جميعا بعده .

والواقع أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج من مكة بإكراه قريش له ، وإن كانوا قد هموا به بل كان خروجه بأمر ربه حين أذن له فى الهجرة ، حفاظا على الدعوة وتمكينا لها من المضى فى طريقها لأَداء مهمتها السامية فى جو من الأمن والاستقرار . وليسلم منهم ومن أعقابهم من يشرف بالإسلام ، لذلك لم يقع لهم الاستئصال ، وعن مجاهد قال : أرادت قريش ذلك ولكنها لم تفعل لأنه سبحانه أراد استبقاءها وعدم استئصالها ليسلم منها ومن أعقابها من يسلم ،فأَذن لرسوله بالهجرة ، فخرج بإذنه لا بإخراج قريش وقهرهم .

وأسند الإخراج إليهم فى قوله تعالى : « وَكَأَىٍّ مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ »[1] . وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أَوَ مُخْرِجِىَّ هُمْ » .وفىقول ورقة – ليتنى كنت جذعا إذ يخرجك قومك ، – أسند الإخراج إليهم – لِهَمِّهِمْ به ومزاولة مقدماته باستفزازهم له ولأصحابه .

٧٧– (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قبلَكَ مِن رُّسُلِنَا) :

أي سننا سنة فى أمم المرسلين قبلك ، وهى أن تعذب كل أمة كفرت برسولها وآذته وجعلته يخرج من بين أظهرها ، وذلك بإهلاكها بحيث لا تلبث بعده إلا قليلا حتَّى يَحِيقَ بها الدمار والنكال ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاء قومه والذين كفروا به بعذاب من عند الله لا قبل لهم به فى الدنيا . ولهذا قال تعالى :

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِم »[2] . وإسناد السنة إلى الرسل مع أنها لله جل شأنه لأنها سنت لأجلهم .

(وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) : أى لا خلف فى وعدها ولاتغيير فى وقتها ونوعها.

(أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾)

(١) سورة محمد الآية ١٣ (٢) سورة الأنفال الآية ٣٣

المفـردات :

(لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) : لميلها عن وسط السماء. يقال « دلكت الشمس » أى مالت وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه غَرْبًا. (غَسَقِ اللَّيلِ) : شدة ظلمته، يقال غسق الليل غسقا ويحرك وغسقانا وأغسق اشتدت ظلمته ، ويطلق الغسق على ظلمة أول الليل . (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) : قراءته والمراد بها صلاته . (فَتَهَجَّدْ) : الهجود النوم ، والتهجد التيقظ منه للصلاة .

(نَافِلَةً) : زائدة على الفريضة. (مُدْخَل صِدْقٍ) : إدخال صدق ، فهو مصدر ميمى من الرباعى ، وكذلك (مُخْرج صِدْقٍ) : أى إخراج صدق . (سُلْطَاناً) : حجة لها سلطة على العقل يقنعها .

التفسـير

٧٨ـ (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) :

لما ذكر سبحانه فى الآيات السابقة محاولة المشركين صرفه صلى الله عليه وسلم عن الدعوة وإزعاجه بالفتن والأذى ، أتبعها هذه الآيات يأمره فيها بإقامة الصلاة، لما فيها من التثبيت والصبر والقوة الروحية على مجابهة فتن المشركين .

والمعنى : أقم الصلاة أيها الرسول وسائر المؤمنين عند ميل الشمس عن وسط السماء إلى أن تشتد ظلمة الليل بعد غروبها ، وهذا الوقت يشتمل على أربع صلوات هى الظهر والعصر والمغرب والعشاءُ .

والأمر بإقامتها بين دلوك الشمس وغسق الليل يراد به إقامة كل صلاة منها فى وقتها الذى عين لها بينهما ، ببيان جبريل عليه السلام. كما أن كيفية كل صلاة منها بينها النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بتعليم جبريل عليه السلام ، وإنما فرضت فى الأوقات المعينة لها لأن شأن الإنسان فيها أن يكون متيقظا . ثم أتبعه تعالى بصلاة الفجر بأمر خاص تضمنه قوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجرِ » اهتماما بها لأنها تكون بعد نوم يشغلها عن الصلوات الأربع ، وعبر عن صلاة الفجْر بالقرآن لأنه يطلب فيها تطويل القراءة أكثر من غيرها ، ولهذا تشهدها الملائكة كما سيأتى ،وبذلك تكون الآية الكريمة قد اشتملت على الصلوات الخمس .

وقيل المراد بالصلاة فى قوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلَاةَ » صلاة المغرب ، ويكون معنى دلوك الشمس غروبها وغسق الليل ظلمته ، باختفاء الشفق فيكون آخر وقت صلاتها أداءً .

(إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار حينما يتعاقبون ، والمراد بهم الكتبة ، وقد روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : «وقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » حديث صحيح ، وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر » وقيل تشهده كثرة من المصلين عادة أو من حقه ذلك ، أو تشهده وتحضر فيه شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة ، واليقظة بالنوم وهو أخو الموت ، وإظهار لفظ القرآن فى مقام الإضمار لمزيد الاهتمام به .

٧٩ - (وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ[1] . . .) الآية .

التهجد التيقظ بعد النوم ، والمقصود بالتهجد هنا الصلاة ليلا بعد النوم ، والضمير فى قوله : « فتهجد به » يعود على القرآن ، أى فتهجد بالقرآن وصل مُتَلَبِّسًا بقراءته بعد الفاتحة ، وذلك بعد قيامك من النوم ليلا ، ويستدل بذلك على تطويل القراءة فى التهجد ويجوز عود الضمير على الليل . والباء بمعنى فى . أى : وبعض الليل فتهجد فيه .

(نَافِلَةً لَّكَ) : فريضة زائدة على المفروض على الأمة . خاصة بك فالخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل كانت فى الابتداء واجبة عليه وعلى الأمة ثم نسخ الوجوب وصار الأمر فيها للندب ، فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه : كان ذلك زيادة له فى الدرجات . أما غيره من الأمة فتطوعه لجبر نقص ولتدارك خلل يقع فى الفرض أو لتكفير ذنب يلم به أو لزيادة ثواب . قال معناه مجاهد وغيره .

(عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) : أى وبعض الليل فتهجد فيه لتكون على رجاء أن يبلغك ربك إلى كمالك الذى أنت أهل له فى الدار الآخرة . فيقيمك فى مقام محمود عند نفسك وعند الناس أجمعين . وذلك هو مقام الشفاعة العظمى فى فصل

(١) الهجود : النوم ، والتهجد إزالة الهجود بالتيقظ من النوم .

القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « مقاماً يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وتشرف فيه على جميع الخلائق ، تَسْأَل فتعطى ، وتشفع فتشفع ، ليس أحد إلا تحت لوائك » . وقيل المقام المحمود هو إعطاؤُه عليه السلام مرتبة من العلم لم تعط لغيره من الخلق أصلا ، وعلى الجملة فالمقام المحمود ينتظم كل مقام يتضمن كرامة له صلى الله عليه وسلم ويشير إلى ذلك التنكيرُ فى قوله : « مقاماً » حيث يفيد التعميم والتفخيم .

٨٠ ـ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[1] :

لما وعد الله رسوله المقام المحمود ، أمره أن يتجه إليه بدعائه لينجزله وعده أى قل منادياً ربك : أدخلنى فيما أمرت به من الطاعات إدخالا مرضياً ، وأخرجنى عما نهيت عنه إخراجا نظيفاً من المعاصى ، وهيىء لى كل أسباب العزم والقوة لجهاد أعداء دينك ، حتى أنتصر عليهم بسلطانك وتأييدك ، حتى أكون أهلا لما وعدتنى من المقام المحمود ، وقيل علَّمه جل شأنه أن يدعوه بأن يخرجه من دار المشركين دار الإيذاء والغدر ، وأن يُدخله موطناً للطمأنينة والأمن ، فدعا ربه كما أمره فأخرجه من مكة وأدخله المدينة ، وروى هذا المعنى الترمذى عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أُمر بالهجرة فنزلت. وقال الضحاك : هو خروجه من مكة مهاجراً ، ودخوله مكة يوم الفتح آمنًا ـ وتقديم الإدخال فى الآية على الإخراج مع أن إخراجه من مكة أسبق من إدخاله فيها بعد ذلك ، لأن إدخاله فيها هو الهدف المقصود ، وقيل المعنى : أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق إذا أمتنى ، قاله مجاهد .

﴿ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ :

أى حجة ثابتة وبرهانا بينا يكون به النصر على من يخالفنى ، وكون السلطان مراداً به ما ذكر ، موافق لرأى الشعبى وعكرمة . وذهب الحسن إلى أن المراد به إظهار دينه على الدين كله ، بالتسلط على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين بإقامة الحد ، وبعصمته من كل أذى يوجه إليه وإلى دين الله ، وقد استجاب الله لدعاء رسوله ، فأظهر دينه على الأديان كلها وعصمه من أذى الناس وكيدهم ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى

(١) مدخل صدق ، أى إدخال صدق ، ومخرج صدق أى إخراج صدق فهو مصدر ميمى فى كليهما .

ويتبين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون »[1]. وقوله : « والله يعصمك من الناس »[2].
وقد أشعر وصف « سلطانا » بقوله « نصيرا » وهى من صيغ المبالغة - أشعر بأنه صلى الله عليه وسلم يدعو بنصر حاسم .

٨١ - (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) :

أى وقل جاء الحق الذى لامرية فيه ولا قبل لهم برده ،وهو الإسلام المؤيد بمعجزة القرآن الكريم ، الداعى إلى الإيمان الصادق والعلم النافع ، وذهب الباطل واضمحل فهلك الكفر والشرك ، وما زينه الشيطان من شرور وآثام .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) : وعد من الله جل شأنه بنصر الحق على الباطل أى أن الباطل شأنه عند الله أن يكون مضمحلا ولا بقاء له مهما طال به الأمد ، وامتد به الزمن ، وتعدد المستمسكون به ، وفى بيان ذلك يقول سبحانه : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »[3]. ويروى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نصبا - فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يطعنها بمخصرة فى يده ، وربما قال : بعود ، ويقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ، هذا لفظ رواية الترمذى ، قال القشيرى : فما بقى منها صنم إلا خر لوجهه ، ثم أمر بها فكسرت .

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(خَسَارًا) : الخسار : الهلاك والضلال .

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣ (٢) سورة المائدة : الآية ٦٧
(٣) سورة الأنبياء : من الآية ١٨

التفسير

٨٢ - ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ . . ﴾ :

أى شفاءٌ لما فى الصدور من شك ونفاق ، وزيغ وشرك ، وذلك بتخليصها من مرض الجهل ، وداء العناد ، وشهوة الإعراض حتّى تستبين الأُمور الدالة على الله تعالى ، فالقرآن فى تقويم النفوس ، وتنقية القلوب كالدواء الشافى للمرضى ، وهو جميعه كذلك . ويرى بعض العلماء أنه يستشفى به من الأمراض الظاهرة ، استنادا إلى حديث صحيح فى ذلك ، قال القرطبى : روى الأئمة واللفظ للدارقطنى عن أبى سعيد الخدرى قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية ثلاثين راكبا ، قال فنزلنا على قوم من العرب ، فسألناهم أن يضيِّفونا فأبوا - قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يرقى من العقرب ؟ إن الملك يموت . قال : قلت أنا - نعم ، ولكن لا أفعل حتّى تعطونا ، فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ ، فبعث إلينا بالنُّزْل[1] ، وبعث إلينا بالشاء[2]) إلى آخر الحديث .

﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هو رحمة لهم ، ففيه بواعث الإيمان والحكمة ، والرغبة فى كل فضيلة ومكرمة ، فتعمهم بالعمل به الرحمة التى تشمل تفريج الكروب . وتكفير الذنوب ومضاعفة الأُجور .

﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ : أى ضلالا وهلاكا لتكذيبهم المتتابع ، وكفرهم المتكرر بكل آية يوحى بها ، وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن ، باعتبار كونه سببها حيث تمادوا فى كفرهم به وتكذيبهم له كلما أُنزل ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة فصلت : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »[3] .

---

(١) النزل : بوزن القفل ؛ الطعام الذى يهيأ للضيف الذى ينزل بك .

(٢) الشاء : هى الغنم التى جعلوها لهم عطاء وأجرا على رقيا الملك الملدوغ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٤٤ .

(وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾)

المفردات :

نأى الشيءُ بعد ، ونأيته ونأيت عنه: بعدت .

(وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ) : تكبر وتباعد. (يَئُوسًا) : شديد اليأس. (عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ) : على طريقته ومذهبه.

التفسير

٨٣ـ (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ) :

يخبر الله بهذه الآية عن نقص الإنسان من حيث طبيعته فى حالتى الرخاء والشدة ، فإذا أنعم عليه بمال وصحة ، وفتح ونصر ، ونال كل مآربه أو بعضها ، أعرض عن طاعة خالقه ، وبعد عن عبادته ، وإذا مسه شر ، أو نزلت به كارثة ، بالغ فى اليأس من رحمة الله ـ وتمادى فى الجزع ، فالآية نزلت تذكر منهجاً عامًّا سلكه جنس الإنسان عند ممارسته لشئون الحياة ، وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة .

والمعنى : وإذا أنعم الله على الإنسان بالصحة وبسط له كل أسباب النعمة والقوة لم يذكر فضل الله عليه كأنه مستغن عنه ، وبدل أن يقوم بشكره ، ويذل لسلطانه ، تكبر وتباعد ، وطوى عن الطاعة عنقه وأعطاها عرض وجهه وبعد بجانبه وولاها ظهره ، وتلك الآية تبرز مبالغته فى الإعراض والبعد عن ربه غروراً واستكباراً ، مصورة بصورة الأمور المحسوسة تقبيحاله وتقريعاً على ما اقترف من إثم عظيم .

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا) : أى إذا نزل به شر من مرض أو فقر أو كارثة من الكوارث التى تلم به ، كان شديد اليأس والقنوط من فرج الله الذى وعده عباده المؤمنين ، وذلك لأنه لم يقبل عليه فى الرخاء ، حتى يرجوه فى الشدة ، ولو أنه صبر لظفر ، فقد جاء فى حديث ابن عباس : « وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وأن مع العسر يسراً » .

٨٤ـ (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) :

تهديد للمشركين ووعيد لهم ، وطمأنة للمؤمنين وحفز لهم ، أى أن كل واحد منكم سواءٌ أكان مؤمنا أم كافرا ، مقبلا أم معرضاً ، راجياً أم قانطا. يعمل على طريقته ومذهبه وأخلاقه التى ألفها فى الهدى والضلال . وسيُجزَى كلٌّ عمله لا تخفى منه خافية .

(فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) : أى فربكم الذى خلقكم أعلم بمن هو أبين منهاجا ، وأرشد طريقاً وهو المؤمن المهتدى فيثيبه ويجزل عطاءه ، كما هو أعلم بمن يمشى مكبًّا على وجهه شديد العناد فى سلوكه ، فلا يمنحه توفيقه ، ولا يزيده إلا خساراً ونكالاً .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾)

المفردات : -

(الرُّوح) : يطلق على ما به حياة الأنفس يُذَكَّر ويؤنَّث ، ويطلق أيضا على القرآن وعلى الوحى وجبريل ، كما يطلق على غير ذلك ، وسيأتى بيان المراد منه فى الآية .

(مِنْ أَمْرِ رَبِّى) : من شأنه الذى اختَصَّ به سبحانه وتعالى .

التفسير

٨٥ـ (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) :

نزلت هذه الآية الكريمة حينما سألت قريش الرسول عن الروح بإيعاز من اليهود فقد أخرج أحمد والنسائى والترمذى وابن حبان وجماعة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود اعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقالوا سلوه عن الروح فنزلت. وقيل بعثت النضر ابن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة فقالوا : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت ، فليس بنبى ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى . فجاءوا وسألوه فبين لهم صلى الله عليه وسلم القصَّتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم فى التوراة ، لأنه مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع

عليه ملكاً ولا نبياً مرسلا فكان ذلك سبباً لنزولها ، وكان السؤال عن حقيقة الروح ومسلكه فى بدن الإنسان ، وامتزاجه بالجسم واتصال الحياة به وهذا شئ لايعلمه إلا الله ، وذلك ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن فهم حقيقة نفسه ومصدر حياته مع علمه بوجودها . وفى هذا دلالة ناطقة على أنه وقد عجز عن إدراك حقيقة نفسه فهو عن إدراك كنه خالقه أعجز ، لأنه اللطيف الذى لايعلم ذاته سواه .

وقيل فى معنى الروح أقوال منها : أنها صورة كالبدن تسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر ، وقيل غير ذلك ، والصحيح أنها شئ لايعلمه إلا الله لقوله تعالى آمرا نبيه بإجابتهم : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) :

وكان المقام للإضمار فيقال قل هو من أمر ربى ، ولكن الإظهار لكمال العناية بالمسئول عنه . أى قل إن الروح من الأسرار الخفية التى تعجز عن إدراكها عقول البشر وتكل عن معرفتها أفهامهم ، فهى من الأمور التى استأثر الله بعلمها ، والإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فى (ربى) للتشريف والتعظيم .

(وَمَآ أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) : اختلف فيمن خوطب بهذا ، فقيل : السائلون فقط ، وقيل : اليهود بجملتهم ، وقيل : العالم كله وهو الصحيح . فقد أخرج ابن اسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت هذه الآية بمكة فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا يامحمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » أفعنيتنا أم قومك ؟ قال كُلاًّ عَنَيْتُ ــ قالوا فإنك تتلو أنا أُوتينا التوراة وفيها بيان كل شئ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم ، وأنزل الله : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [١] .

ولاشك أن القلة والكثرة من الأمور الإضافية ، فالشئ يكون قليلا بالنسبة إلى مافوقه وكثيرا بالنسبة إلى ماتحته ، فما فى التوراة قليل بالنسبة إلى ما فى علم الله حيث إن علمه

---

(١) سورة لقمان : الآية ٢٧

سبحانه يتعلق بكل شىء فى ملكوته من الخلق والتكوين والحياة والموت والسموات والأرض ، والثواب والعقاب .

(وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) : أى لَنُزِيلنَّه ، يقال ذهب به أزاله كأذهبه .

التفسير

٨٦ - (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) :

أى ولو أردنا أن نذهب بالقرآن الذى أوحيناه إليك وثبتناك عليه حينما حاولوا فتنتك لو أردنا ذلك لذهبنا ، ثم لا تجدلك بالقرآن وكيلا يلتزم باسترداده منا ، كما يلزم الوكيل باسترداد ما ذهب منه ووُكِّل فيه ، ولكن الله تفضل بإبقائه فى صدرك وصدور المؤمنين ومصاحفهم رحمة بعباده ، وفى ذلك يقول الله :

٨٧ - (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) :

أى ولكن رحمة من ربك تركه غير مذهوب به ، فيكون ذلك امتنانًا بإبقائه بعد الامتنان بإنزاله ، وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه ، لأنه أجل النعم وأعظمها (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) : إذ اصطفاك على سائر الخلق واختصك بالمقام المحمود . وجعلك خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليك كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتكفل ببقائه وحفظه ، وينصرك على أعدائك بما أمدك به من رعاية وتوفيق .

(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(ظَهِيرًا) : معينا ونصيرا . (صَرَّفْنَا) : رددنا وكررنا .

(فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : أى ما قبل أكثرهم إلا الجحود والإعراض .

التفسير

٨٨ - (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

نزلت هذه الآية حين قال الكفار : ولو شئنا لقلنا مثل هذا . أى قل للذين لا يعرفون قدر القرآن العظيم . وشأنه الجليل فزعموا أنه من كلام البشر وأن فى مقدورهم الإتيان بكلام مماثل له ، قل لهم لو اتفقت كلمة الإنس منهم والجن ، وتضافرت هممهم وأقبلوا بكل عقولهم وأفكارهم على تحقيق رغبتهم فى الإتيان بمثله فى سمو الأسلوب ، ودقة التنسيق ، وكمال المعنى وقوة التشريع ، والإخبار بالغيبيات وغير ذلك ، لو اجتمعت على ذلك لعجزوا عن الإتيان بمثله ، لا بِعِىٍّ فيهم فهم أهل لسن وبلاغة ، وإنما الإعجاز فيه فى لفظه ومعناه وتشريعه وتأثيره النفسى جعله فوق مستوى الجن والإنس .

(وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

أى لا يأتون بمثله على أى حال مفروضة ، بمعنى أنهم سيبوءون بالإخفاق على الانفراد ، أو على الاجتماع متعاونين ، وفى ذلك حسم وقطع لأطماعهم الضالة التى أملت عليهم وزينت لهم الإتيان بمثله ، وتأكيد لعجزهم عنه على أى حال من الأحوال .

٨٩ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) :

أى كررنا ورددنا للناس فى هذا التنزيل من كل معنى بديع غاية الحسن يستجلب النفوس ويستميلها كما تستميلها الأمثال السائرة ، أو ذكرنا فى القرآن طرقا متنوعة توجب زيادة وضوح فى البيان ندعمها بالحجج الواضحة والبراهين القاطعة التى تبعث فى النفوس الثقة والاطمئنان ، أو وجهنا للناس القول فيه من كل مَثَلٍ رائع فى الحكمة الإلهية والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وقصص الأولين والجنة والنار وشئون القيامة وغير ذلك من العبر .

(فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : والمراد بأكثر الناس من كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب . واستظهر فى البحر أنهم أهل مكة بدليل أن الضمائر الآتية لهم ، أى ما رضى أكثرهم إلا الكفر والجحود للحق ، وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء .

وأوثر إظهار لفظ الناس مع أن المقام للإضمار لزيادة التأكيد والتوضيح .

(وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(تَفْجُرَ) : تشق وتفتح . (يَنْبُوعاً) : الينبوع العين الكثيرة الماء . (فَتُفَجِّرَ) : بالتشديد للتكثير . (كِسَفًا) : أى قطعا جمع كسفة كقطعة . (قَبِيلًا) : مقابلة ومعاينة ، أو كفيلا بما تدعيه .شاهدا بصحته . (منْ زُخْرُفٍ) : الزخرف الذهب والزينة .
(تَرْقَى فِى السَّمَآءِ) : تصعد فى معارجها .

التفسير

٩٠ ـ (وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ ينبُوعاً) :

بعد أن تبينت حجج القرآن لقريش وظهر عجزهم عن محاكاته ، وهم أهل اللغة والفصاحة ، اجتمع رؤساؤهم وذوو الشرف فيهم ، ودعوا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الاجتماع بهم . فقالوا له : إن كنت تريد مالا جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد الشرف فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان الذى يأتيك رَئِيا (أى تابعا من الجن) بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعْذَر فيك ، فلم يجبهم إلى ما طلبوه ،وانصرف إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من إيمانهم ، ولما رأى من مباعدتهم إياه ، وكان ذلك سببا فى نزول الآيات التى تحكى تعنتهم بما اقترحوه من الأمور الستة التى طلبوها منه ، متعللين بما لا يمكن وقوعه عادة وما يستبعد عقلا .

وما قصدوا بما اقترحوا إلا العناد واللجاج ،وإلا فقد كانت تكفيهم معجزة القرآن التى تخر لها صُمّ الجبال .

والمعنى : أنهم قالوا لن نصدق بما جئت به حتى تشق لك بأرض مكة عينا لا ينقطع ماؤها الكثير عن الجريان والاندفاع .

٩١ ـ (أَو تكُونَ لَكَ جنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ) :

أى بستان تستُر أشجارُه العالية وأغصانه المتشابكة ما تحتها من فضاء ، وإنما خصوا لنخيل والعنب لأنهما النوعان المعروفان بأرض مكة .

(فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً) : فتجرى الأنهار وسط تلك الجنة جريانا قويًّا دائما للانتفاع بها فى رى تلك الجنة وغيرها .

٩٢ ـ (أَو تُسْقِطَ السمآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا) .

أو تسقط السماء علينا قطعا متناثرة كما أوعدتنا فى قولك « إن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّماء »[1] فعجّل لنا ذلك وأسقطها .

(أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والْمَلَآئِكَةِ قَبِيلا) :أو أن تأتى بالله مقابلا وبالملائكة كذلك بحيث نعاينهم ونراهم ، وعلى أن القبيل بمعنى الكفيل يكون المعنى :أو تأتى بالله كفيلا وبالملائكة كفلاء . بما تدعيه ، يشهدون بصحة ما قلته ويضمنونك فيما يترتب عليه .

٩٣ ـ (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ) :

من ذهب لأننا لانتقاد لك ولا نؤمن بك مع فقرك الذى نراه .

(أَوْ تَرْقَى فى السَّمَآءِ) :أى تصعد فى معارجها . (وَلَن نُّؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُه) :أى لن يقع إيمان منا بك من أجل رقيك فى السماء فحسب ، أو لن نصدق أنك رقيتها حتى تصحب معك كتابا منزلا من الله بلغتنا وفيه تصديقك منه سبحانه ،ويكون موجها إلى كل رجل منا ،كما حكاه الله بقوله : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً »[2] .

وبلغ من عنادهم الحاقد وتعنتهم البالغ أن طلبوا منه شهوداً من الملائكة على صحة ما ينزل عليهم من السماء ،فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عبد الله بن أبى أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلَّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة ملائكة يشهدون أنك كما تقول .

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولًا) :أى قل لهم يامحمد متعجبا من فرط حماقتهم ، وتنزيها لله عز وجل ، سبحان ربى أن يتقدم أحد بين يدى جلاله فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ،بما لا يليق من مثل هذه الاقتراحات التى تضمنت أعظم الجرأة على الله رب

(١) سورة سبأ : الآية ٩

(٢) سورة المدثر : الآية ٥٢

العالمين ،فلا يحق لأحد أن يطلبها لأنه الفعال لما يشاء ، فإن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم إليه ، أو قل لهم : تنزيها لله ربى أن أطلب منه تحقيق ماطلبتموه فما أنا أيها القوم إلا رسول أتبع ما يوحى إلى ، وأبلغكم رسالات ربى ، ولم تكن الرسل من قبلى يأتون أممهم بما يريدونه من الآيات ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالةِ على صحةِ نبوّتهم ، فسبيلى سبيلهم .

(وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(النَّاس) : أى الذين حكيت أباطيلهم . (مُطْمَئِنِّينَ) : مقيمين فيها كالبشر .

(خبيراً) : يقال خبرت الشىء أخبره من باب نصر ، خُبراً بضم الخاء وسكون الباء . علمته فأنابه خبير ، والمراد منه وصفه تعالى بأنه محيط ببواطن الأُمور ودقائقها .

(بصيراً) : أى عليما : يقال بصُرت بالشىء بضم الصاد والكسر لغة بصراً بفتحتين علمت ، فأنا بصير به ، والمراد به أنه تعالى عليم بالأمور علم إحاطة وشمول .

التفسير

٩٤ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا) :

أى مامنع أكثر الناس الذين حكيت أباطيلهم فى الآيات السابقة ، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك وقت مجىء الوحى إلا قولهم على سبيل الإنكار : أيحق أن يكون رسول الله من جنس البشر ؟ وقصدهم نفى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر ، والرسالة فى اعتقادهم إنما تكون للملَك لا للبشر ، وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم بقوله :

٩٥ - (قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا) :

أى قل لهم أيها النبى منبها إلى رحمة الله بعباده ، وفضله عليهم : لو وجد فى الأرض ملائكة يسكنونها ويمشون فيها كما تمشى البشر ولا يعرجون فى السماء ليعلموا ما يجب عليهم علمه ، لبعث إليهم ملكا منهم وعلى شاكلتهم ، ليتفقهوا عنه ويعلموا منه مالا تستقل قدرتهم بعلمه ، حيث يتسنى لهم مخاطبته ومكالمته ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس ، أما سكان الأرض من البشر ، فهم بمعزل عن إمكان التلقى من الملائكة ، فبعْث الملَك إليهم مناف للحكمة المقتضية لوجوب التجانس بين الرسول ومن يرسل إليهم ، أما إرسال الملَك بوحى إلى الرسل من البشر كمحمد وعيسى وموسى عليهم السلام . فلأن الله أعطاهم من القوى الروحية العليا ما يجعلهم أهلا لتلقى الوحى عن الملك حيث جعل لهم جهتين ؛ جهة ملكية بها من الملك يستفيضون ، وجهة بشرية : بها على البشر يفيضون ، وجعل كل البشر كذلك مخل بالحكمة .

وكان الملَك يظهر للرسول على وجه يسهل معه التلقى عنه ، كما ظهر جبريل عليه السلام للرسول فى صورة دحية الكلبى ، وقد صح أن أعرابيا جاء وعليه أثر السفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وغيرهما ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه به ثم انصرف ولم يعرفه أحد من الصحابة رضى الله

عنهم . فقال صلى الله عليه وسلم هذا جبريل جاء يعلمكم أمر دينكم ، والحديث فى البخارى والنسائى وغيرهما .

٩٦ـ (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ) :

يروى أن كفار قريش حين سمعوا قوله سبحانه : « هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا » قالوا : فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ . . .) الآية .

والمعنى قل كفى بالله شهيدا على أنى رسول أديت واجب الرسالة إليكم على أكمل وجه ، وعلى أنكم بالغتم فى التكذيب والعناد، فهو شاهد لى وعليكم ، عالم بما كان منى ومنكم .

(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيرًا) : هذا تعليل لكفاية شهادة الله مع الإيذان بطمأنة الرسول ، وتهديد الكفار ، أى أنه سبحانه محيط بـأحوال وأعمال عباده جميعا : الرسل والمرسل إليهم ، عليم بظواهرهم وبواطنهم لا تخفى عليه منهم خافية ، يهدى من أقبل عليه ، ويتخلى عمن تولى عنه ، ولهذا قال سبحانه :

(وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(عُمْياً) : جمع أعمى وهو الذى لا يبصر.

(بُكْماً) : جمع أبكم وهوالذى لا ينطق.

(وَصُمًّا) : جمع أصم وهو الذى لا يسمع.

(كُلَّمَا خَبَتْ) : كلما سكن لهيبها وصار عليها غشاءٌ وطبقة من رماد .

(وَرُفَاتاً) : هو فى الأصل كما قال الراغب ما تفرق من التبن ويطلق على الحطام ، والمراد هنا بَالِينَ متناثرين .

التفسير

٩٧ - (ومَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ومن يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ) :

هذا كلام مبتدأ يفصل به سبحانه ما أشار إليه قوله « إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا » أى ومن يوفقه الله للهداية بحسن استعداده وقبوله للحق ، فهو المهتدى إلى الحق ، وإلى كل ما يؤدى إلى الثواب وحسن الجزاء ، أو المهتدى إلى كل مطلوب يستقيم به دينه ، ويتحقق به هداه، ومن يضلِلْه : أى يتخلى عنه فلا يوفقه للهداية لسوء اختياره ، وقبح استعداده ، وفساد طبعه ، كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا من دون الله يهدونهم إلى طريق النجاة من عذاب استحقوه بإمعانهم فى الضلال والعناد ، أو يهدونهم إلى الحق والسعادة فى الدارين . وأوثر لفظ الإفراد فى قوله (فَهُوَ الْمُهْتَدِ) ولفظ الجمع فى قوله (فَلَن تَجِدَلَهُمْ) رعاية للفظ (مَنْ) فى الأول ولمعناها فى الثانى . تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة أتباعه، وتعدد سبل الضلال ، وكثرة الضالين .

(ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا) : أى أنهم بعد الحساب يوم الحشر يساقون إلى جهنم على وجوههم ، مدفوعين إليها دفعا سريعا لايلوون على شىء أخذا من قول العرب ، قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا أو أنهم يسحبون إليها على وجوههم كما يفعل فى الدنيا مع من يبالغ فى امتهانه وتعذيبه أو أنهم يمشون على وجوههم ليدخلوها ، ويشهد لذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال : « آلذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » وحين يحشرون يكونون عميا لا يبصرون شيئا تقر به أعينهم ، وبكمًا لاينطقون

ما يقبل منهم ، وصُمًّا لا يسمعون ماتطمئن به أسماعهم .قال ابن عباس والحسن :عُمْى عما يسرهم بُكْمٌ عن التكلم بحجة .صمٌّ عما ينفعهم . وعلى هذا فحواسهم باقية على ما هى عليه ويكون ذلك على المجاز . وقيل إنهم يحشرون عميا بكما صما على سبيل الحقيقة تحقيرا لهم وامتهانا ، ثم تعاد إليهم تلك الحواس عندما يحشرون إلى النار ليبصروا لظاها ولهيبها القوى وأهوالها البالغة .كما قال تعالى : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً »[1] .وليتكلموا بما يزيدهم ألما وحسرة قال تعالى : « وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً »[2] . وليسمعوا ما يذيب نفوسهم فزعا وهلعا وقلوبهم خوفا ورهبة قال تعالى : « إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً »[3] .وقيل يحصل لهم العمى والبكم والصمم بعد دخول النار لشدة سوادها ، وقسوة أهوالها .

(مأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) : أى أن جهنم مستقرهم ومقامهم ، يصلون العذاب فيها الدائم ، وحتى يبقى شديدا أليما فإنه كلما خبت زادها الله سعيراً وناراً تلظّى .

٩٨ – (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَاتِنَا وَقَالُوٓا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيدًا) :

أى ذلك العذاب الشديد جزاءُ كفرهم فى الدنيا بآياتنا القرآنية والكونية الدَّالة على البعث ،دلالة بيِّنة لا لبس فيها ولا إبهام ، أو الدالة على صحة ما أرسلناك به مطلقا ، فيشمل ما ذكر من الدلالة على البعث الذى أنكروه أشد الإنكار ، واستبعدوا وقوعه حيث قالوا : أَبعد أن أصبحنا ترابا أو أجزاءً متفتتة تفرقت وتناثرت ، أَبعد ذلك نبعث خلقا جديدا أى بعثا جديدًا ، تتلاقى فيه منا الأَجزاءُ وتستقيم القامات. أو المعنى أنبعث مخلوقين على سبيل الإيجاد والتكوين مرة أُخرى ؟ وقد رد الله على إنكارهم الإعادة بعد الفناء بما يأْتى من الآيات ، فقال تعالى :

(١) سورة الكهف الآية ٥٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٥٣ .
(٣) سورة الفرقان . الآية ١٢ .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محاسب / صالح زكريا

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨١

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٢١٧٣-١٩٨٠-٠٠٤ و ٢٥

